دار الثقافة

الثالوث

الحياة

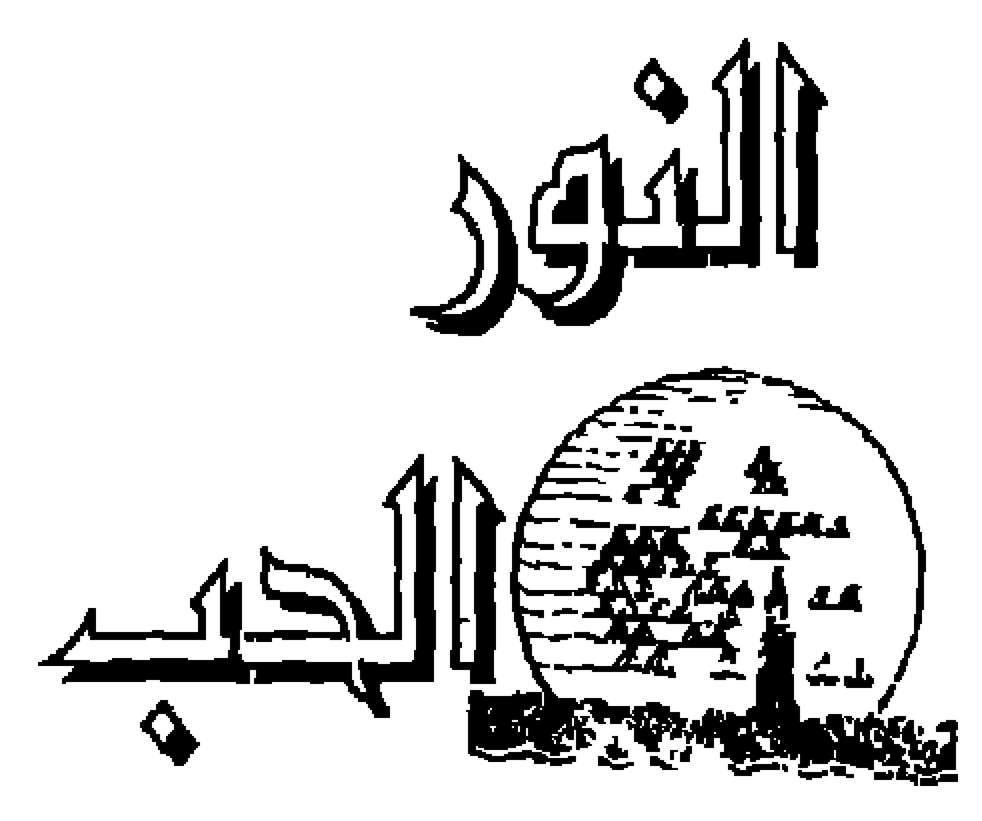
النــور

ب

دكتور الأنبا يوحنا قلته

دعوة للتفكير





د. الانبا يوحنا قلته

طبعة أولى

الثالوث: الحياة - النور - الحب

صدر عن دار الثقافة - ص.ب ١٢٩٨- القاهرة

١٠/ ٧٣١ ط١/١-١/ ٩٧

رقم الإيداع بدار الكتاب: ٨١١٠ / ٩٧

ISBN 977 - 213 - 391 - 3

طبع مطبعة سيوبرس

تصميم الغلاف: سها ناجي

إهداء

إيماننا المسيحى ...

جوهرة حياتنا ...

عقيدتنا التى افتداها الشهداء ..

قمّة إيماننا عقيدة الثالوث المقدس .

إلى كل مسيحى .. وإلى كل مسيحية.

إلى شباب الكليات الاكليريكية ..

إلى إخوتى وأبنائى فى الإيمان.

إليكم كلمات مُحب يحاول أن يحيا مؤمناً.

المؤلف

مقدمة الدار

عقيدة الثالوث هي أساس الإيمان المسيحي، ولذلك فهي عقيدة راسخة لدى كل المسيحيين.

ولكن كثيرين من المؤمنين يقفون حيارى وعاجزين عن فهمها أو المناقشة فيها، مما يجعلهم في حرج، حيث تعني الكلمة إلى تعدد الآلهة.

ولكن حاشا لله أن ينقسم إلى ثلاثة آلهة، فعقيدة الثالوث هي عقيدة لتأكيد وحدانية الله وليس العكس، فهو إله كبير وعظيم لا يستطيع أن يحده الإنسان بلفظ أو كلمة، حيث أن اللغة مهما كانت بليغة لا تستطيع أن توضح المعنى الحقيقي لكلمة ثالوث.

لذلك رأى الكاتب المعروف د. الأنبا يوحنا قلته أن يبسِّط هذه العقيدة لكي يستوعبها عقل المؤمن في هذا الكتاب، موضحاً أن الله لا يستطيع أن يراه أحد، ولكنه في محبته للبشر أرسل لنا ابنه الوحيد لكي يقترب من البشر بفدائه العجيب لنا، معطياً الحياة بدلاً من الموت الذي نستحقه، مرسلاً لنا روحه القدوس لكي يعزينا على الدوام.

ولذلك تقدم دار الثقافة هذا الكتاب راجية أن يساعد القاريء في تفهم هذه العقيدة العظمى بأسلوب عميق وخلاق، أن الله الآب هو "الحياة" والله الفكر هو "الابن" والله الحب هو "الروح القدس".

دار الثقافة

المحتويات

مقدمة الكتاب

كل إنسان عنده شوق يلح عليه أن يرى الله .. بل – أغلب ظنّى – أن جميع الكائنات الحيّة عطشى لرؤية الخالق .

الله هو قضية الإنسان ...

الله هو معضلة الحياة ...

الله هو "منارة" المصير ...

من أنت يا الله !!؟

كيف أنت يا الله !!؟

أين أنت يا الله !!؟

من أنا ، بالنسبة لك يا الله ؟!

* * * * *

تأمّل مسيرة البشر ...

تأمل تطوّر الحياة ، وتقدُّم العلوم ، وعبور الأجيال والزمن ..

تأمّل أفراح الإنسان ، وأحزانه ، وجبال المآسى وأنهار الدموع ..

تأمّل شجاعة النفوس القيادية ، التى تزرع الحب فى قلب الكراهية ، وتبنى الأمل على أنقاض الأحلام والطموح المنهار ..

تأمل الإنسان الشامخ فى كل عصر ، وفى كل مكان ، يدوس على

أحزانه ليفجّر ينابيع الفرح من حوله ، ينزع شوك اليأس ويسكب بلسم الرجاء ، لا يلتفت إلى نزعة الأنانية ، ولا يلبّي حاجات غرائزه، كأن قوة إلهية تدفعه دفعاً إلى العطاء والابتسام .

تأمل فيما يتبقى من تاريخ أمة ، أو شعب ، أو فرد ..

حتمية العدم ، تنتصر دوما ظاهرياً إلا على تراث الحب الذى سُكب فأنبت تقدماً ، وثمار الإيمان التى غزت الأرواح ، فبقى الحب متصلاً وبقى الإيمان متوهّجاً ..

كل شئ يمضي وينتهى ، وكل إنسان يرحل .. إنها حتمية العدم الظاهرى.

ولكن العدم يُهزم تماماً أمام قيم الحب والإيمان والرجاء والتضحية.

وحتى العلم أكد أكذوبة العدم والفناء والصدفة ، فما أجمل أن يؤكد لنا العلم بأن هذا الوجود ، أو هذا الكون ، لا يعرف الفناء بل هو فى تجدّد دوماً وفى مخاض دوماً ، وفى تطوّر ونمو دوماً .

* * * * *

يرحل الأب والأم ...

يرحل الابن والابنة ..

وتتوالى الأجيال ، تتحول إلى رفات ثم إلى تراب ، لكن الإيمان الذى زُرع فى القلب لا يفنى ، والعطاء الذى تدفّق للبناء وللخير ، لم يغلبه العدم ..

أليس فى ذلك معنى .. إن الأبدية ليست أسطورة ، وأن الخلود ليس وهماً ، وأن الفناء أكذوبة ولفظ لا معنى له ..

أليس ذلك معناه أن الله حقيقة ..

* * * * *

الرحيل إلى رؤية الله ماضٍ لا يتوقف ..

وعند ملء الزمان ...

وفى لحظة من التاريخ ..

جاء إنسان ، تجاسر وقال : من رآنى فقد رأى الله ، أنا والله واحد ، الله ليس بعيداً عنك يا إنسان، ملكوت الله فى أعماقك، الله فى وجدانك ابحث عنه فى الحب لا فى الكراهية ، فى الصفح لا فى الانتقام ، فى الرجاء لا فى اليأس ، فى البناء لا فى الهدم ، فى العطاء لا فى الأنانية ، فى الوحدة مع كل إنسان لا فى الانزواء وفى الفردية .

* * * * *

من رآني فقد رأى الله !!

كيف ؟ ولماذا ؟

منذ أن نطق بهذه العبارة ، وتمزّقت كتب التاريخ ، كانت كلها تكتب عن "الله" المتعالى ، القدّوس ، المترفّع ، الجالس فوق السموات والشاروبيم ، البعيد كل البعد عن واقع الإنسان وعن آلامه ، وأحلامه. كتب التاريخ عن الله ، المجهول، الغامض ، القوى ، المنتقم، الجبار .

وبعد كلمة المسيح من رآنى رأى الله ، كتب التاريخ عن "الله" الذى قال إنه أخلى ذاته ، وصار إنساناً . اختلط الأمر على عقل الإنسان :

أينزل الله إلى الأرض ؟ لماذا ؟

أيحيا الله حياة البشر ؟ لماذا ؟

أيموت الله موت البشر ؟ لماذا ؟

ومضت كتب التاريخ ، تسطّر سيرة الذى قال إن من رآه رأى الله ، والذى قلّب كل مفاهيم الآخرة والدنيا ، أزاح الخوف من الله ، فإذ به يعلن أن الله محبة لا خوف ، نور لا ظلمة ، عفو لا انتقام ، متعة لا ألم ، والسماء عنده حب وسلام ، واتحاد بالله. والجحيم عنده بعد عن الله ، وحرمان منه ، وعطش دائم لرؤيته ، أما الدنيا عنده، فدعوة رائعة ، رحلة إلهية ، رسالة راقية سامية ، لكنه وضع لها مبادئ لم يعرفها القدماء من قبله ، اعط ولا تأخذ ، اصفح ولا تثأر ، كن نوراً لا ظلمة فيه ، كن نهراً يتدفّق بالخير ، ولا تكن بِركة مقفلة مرتعاً للعفن وتخزيناً للحشرات والنباتات السامة ، هذا هو الذى قال : من رآنى رأى الله ..

* * * * *

فكرة أشبه بالجنون ..

أضحت حقيقة يؤمن بها الملايين ..

يموت من أجلها الملايين ...

الله ، عاش بيننا ، فى زمن محدد ، فى وطن محدد ، فى أسرة محددة ، لكن الله ، حطّم القيود ، كل القيود التى قيدت حرية العقل وحرية الوجدان وحرية الجسد ، أزاح كل السدود التى أقيمت خلال آلاف السنين بين أبناء البشر ، أسقط الجغرافيا ، فالكرة الأرضية أسرة واحدة ، وأسقط التاريخ ، فليس أمة خير من أمة ، وليس شعب مختار دون شعب ، أسقط الخوف من قلب كل إنسان فالملك

والعبد ، والمرأة والرجل ، بشر ، كلهم أبناء الله .

قال : من رآني فقد رأى الله ..

قالها ومضى ، بعد أن كتبها فى وجدان البشرية بدمه ، وزرعها فى عقل التاريخ بطهر سيرته ، ونقشها فى خيال الفنون والآداب ، ولم يزل يقول حتى الآن ، إن الله ليس بعيداً عن البشر ، بل الله يتجلّى فى كل قلب برئ ، وعلى كل وجه باسم نقى ، ويتألق فى عينيّ من يعطى ويضحّى ، ويظهر فى كل مخلص.. آمين .

* * * * *

من رآنى فقد رأى الله ..

جنون أم حقيقة !!

ترانى، أنا المسيحى، أؤمن بشيء "جنونى" أم "بحقيقة رائعة" ؟!

قال لى أحدهم : ما يكتب عن الثالوث يفرغ الثالوث من جوهره ؟

مقالاتك عن الثالوث قطرة لا تروى عطشاً !!

* * * * *

قولك حق يا سيدى ..

ولكن أرغب العوم فى البحر الكبير ، على شاطئ المحيط .

ترى ، أيدنس جسدى مياه المحيط ؟ ..

أيلوّث عومى موج البحر ؟ ..

أم أن البحر يطهر جسدي ، وكلما خضت مياهه العميقة ، ومضيت أسبح فى كيانه ، كلما تطهر الجسد والقلب والوجدان ..

لن يضار البحر فى شئ ..

لن يفرغ عومى البحر من مياهه ومن جواهره

هكذا أرغب فى العوم فى أسرار الله ، وأسرار الثالوث

الحديث عن الله أعظم متعة .. والحديث عن الثالوث أروع حديث والتأمّل فى سر الله ، غاية المنى ..

لن تلوث كلماتي الضعيفة البشرية "قداسة الله" ولن يفرغ كلامى سر الخالق من عظمته ..

وفى آخر الأمر ، أنا ، إنسان ، أشتاق إلى رؤية الله، دعنى أراه فى كلمات وسطور تأمل .

دكتور الأنبا يوحنا قلته

عيد القيامة ٢٣/٤/١٩٩٥

-١-

لماذا الحديث عن عقيدة الثالوث ؟

(١) أشعر كأن المسيحي يخجل من عقيدة الثالوث ، ظلال كثيفة تحيط بعقله ووجدانه إذا أُثيرت من حوله كلمات الثالوث ، ابن الله، التجسّد ، الفداء.

المناخ الذى ينشأ فيه المسيحي الشرقي ، مناخ ينطق بوحدانية الله وهي عقيدتنا الأساسية كل لحظة ، كل ساعات الليل والنهار ، ويشعر المسيحى فى أغلب المواقف بالتساؤل عن تعبير الثالوث هل يتعارض مع الوحدانية ، إنه يؤمن إيمان أبائه وأجداده ، يشعر بأن عقيدة الثالوث تسرى فى دمه ، لكنه عاجز عن فهمها وإدراك كنهها، عاجز عن الخوض فى بسطها ، وفى الدفاع عنها ، تطرق أذنيه كلمات رائعة لا غبار عليها الله واحد، يغوص فى أعماقه ، يتوارى حتى عن ذاته ، وكأن عقيدة الثالوث لا داعى للجهر بها ، إنها بعض من إيمانه ، القابع فى أعماقه : المتوارث فى نسيج كيانه .

وبين الحين والحين ، حين يشتدّ الضغط على مسامعه وعلى وجدانه ، تنتابه حيرة ما أشدّها من حيرة ، فيتساءل بينه وبين نفسه : ترى لماذا أؤمن بالثالوث ؟

لماذا لا اقول : الله واحد ولا داعى للخوض في بحر الله العميق، لماذا هذا التعب العقلى والنفسى ، كل الكنيسة تردّد : نؤمن بإله

واحـد ، كل الإنجـيل يعلن مع بولس : الله واحد، كل العهد الجديد يبارك العهد القديم وشريعتـه العظمى : أنا هو الرب إلهك لا يكن لك إله غيرى ...

أما عقيدة الثالوث ، فيتساءل المسيحى : ترى هل هى ضرورية؟

الخطأ هنا ليس خطأ المسيحي البسيط ...

وإنما هو إثم كل رجـال الدين المسـيـحي الذين لا يبسّطون العقيدة حتى يستوعبها عقل المؤمن البسيط ، فالعقائد الإيمانية ليست جـواهر تُحـفظ فى خـزينة الطقـوس والتـراث فـحـسب، والعقيدة التى لا تُعاش ، تجف وتسقط فى طى النسيان ، وتضيع الجواهر فى حُفر دفنها فيها الخوف والخجل والهروب .

لا يدرى المسيحى البسيط أن عقيدة الثالوث هى الشرح الأعظم لعقيدة الوحدانية ، وبدون عقيدة الثالوث تظل الوحدانية عالماً مجهولاً غامضاً ويظل الله بعيداً ، منفصلاً عن الإنسان ، ويصبح الإيمان بالله ، إيماناً مبهماً ، مبتوراً ، ناقصاً ، فلا يدرى المؤمن من هو هذا الإله ؟؟ يسمع عن صفاته ، يتقرّب إلى مجده وسموّه وأبديته ، يصلّى له ، يصوم له ، لكنه يظل بعيداً عنه ، فقد جهل تماماً أى معرفة عن الله الواحد ، عن ذاته الإلهية السرمدية ، عن حياة الله فى ذاته ، عن فكر الله ، عن حب الله ، الله الواحد الأحد ، أعظم عقيدة توصل إليها العقل البشرى ، بقدراته المحدودة ، قبل المسيح بآلاف السنين ، ومع موسى النبى ، أُعلنت رسمياً وإلهياً على جبل سينا : أنا هو الرب ...

إنها قضية فلسفية مسّت العقل ، وحيرته وعذّبت الفلاسفة والمتصوفين حتى ارتقى إليها العقل الفرعونى والمنطق اليونانى .

انتـهى الإنسان من هذه القضـية ، وآمن بالعقيدة ، وعرف

الوحدانية ، قبل المسيح ..

وجاء المسيح ليخطو بالعقل خطوة ، وبالدين خطوة ، كشف للإنسان عمن هو هذا الإله الواحد ؟ لم يكن للعقل قدرة للغوص فى أعماق الذات الإلهى ، فالله لا يعرفه إلا الله، والله لا يتكلم عنه إلا الله ، والله لم يره أحد ، حتى قال المسيح قولته : من رآنى فقد رأى الآب ، أنا والآب واحد ، الآب فىّ وأنا فيه ، كل ما يفعل الآب أنا فاعله ، كما أُعطى أن تكون للآب الحياة فى ذاته ، أُعطى الابن أن تكون له الحياة فى ذاته (يوحنا ٥:٢٦) ... من تعليم المسيح .. ومن وحيه .. تسلّمت الكنيسة وديعة عقيدة الثالوث.

* * * * *

نعم ، كل العهد القديم ، تأكيد لوحدانية الله ، وترسيخ للإيمان بالله الواحد الأحد " أنا هو الرب إلهك لا يكن لك إله غيرى " ولا يوجد إله حقيقي واحد إلا الله الذى كشف عن ذاته للإنسان فى أحداث الخلق ، كخالق قدير ، بيده السموات والأرض ، وأعلن عن ذاته لموسى النبى فى تعبير واضح محدّد حاسم : الله وحده هو الله ولا إله إلا هو [تث ٤ - يش ٢٢ - ٢صم ٧ - ١مل ١ - إش ٤٥]. كان لابد لشعب يحاط بشعوب وثنية ، مغرقة فى عبادة الآلهة المتعددة ، فكل أمة لها آلهتها ، وكل مدينة لها آلهتها بل وكل عيد له إله ، كان لابد ان يحسم الأمر لا لبس فيه ولا تردد ، الله واحد ، ولا إله غير الله ، خالق السموات والأرض ، وكل الكون يخبر بعمل يديه .

لم يكن يخطر على بال أحد فى العهد القديم أن يتجاسر ويسعى للبحث عن الله، فمن هو الله ، كيف هو الله ؟ غير أن أسلوب الكتاب المقدس يشير كرؤية نبوية وبصورة رمزية رائعة إلى أمرين :

كلمة الله ..

روح الله ..

الله يخلق الكائنات بصيغة التعظيم " لنخلق الإنسان ". ويعلن أن اسمه " إيلوهيم " إشارة إلى ملء الحياة والتدفق والقدرة فى ذاته ، يأمر الله أن يبعث الوجود من العدم ، وكلمة الله قانون ، وقوة ، كلمة الله تجسيد لفكره وحكمته وعقله .

أما روح الله الذى يرفرف على الكون والوجود، يجدد الطبيعة ويصونها ، يحيى الإنسان وينفخ فيه بعضاً منه فيستوى الإنسان كائناً عاقلاً روحياً .

الله الواحد الأحد ، العظيم القدوس ، فى ذاته الإلهية الواحدة كلمة ، وفى ذاته الإلهية روح .

يتدرج الإعلان والكشف عن الذات الإلهية. يعبر الكتاب المقدس فى مسيرة الإنسانية ، تعبيراً يتناسب مع سمو وعظمة الذات الإلهية ومع عقلية الإنسان وتطور فكره الدينى ، وقدرة واحتمال العقل للخوض فى عالم الله حتى يأتى العهد الجديد .

* * * * *

(٢) صمدت الكنيسة المسيحية أمام كل الزوابع التى حاولت أن تقتلع جذور الإيمان بأعظم عقيدة ، الإيمان بالله الواحد ، ثالوث : الحياة والنور والحب ، رفضت الإثنية والشرك فى أى صور وفى أى تعبير ، رفضت أن تذوب فى اليهودية ، وأن تتحد بها ، برغم صفاء عقيدة الوحدانية فى العهد القديم ، ونقاء اليهودية من كل شرك ، ومنذ البدء ، من اللحظة التى انطلقت فيها المسيحية بعد صعود المسيح ، وحلول روح الله يوم العنصرة على الرسل

والتلاميذ. أعلنت الكنيسة إيمانها بالله الواحد الأحد فى الجوهر ، مثلّث الأقانيم فى ذاته .

لم يكن الإيمان بالثالوث المقدس ترفاً روحياً ، أو علماً نظرياً ، بل استمدت منه الكنيسة عمق حياتها الروحية فى كل مسيرتها المتصلة ، أما المؤمنون البسطاء ، فيؤمنون بأن الله الآب الخالق القدوس ، مصدر الحياة ، وصانع السماء والأرض ، ومُعطى الشريعة المقدسة، ويكتشفون بالمسيح يسوع أبوّة الله التى تغمر جميع الكائنات . فإن كان تبارك وتعالى فوق جميع المخلوقات متميّز عنها فى الجوهر ، إلا أن الله الآب حاضر فى كل مخلوقاته وإبداعه ، إنه متعال جداً ، قدوس كامل ، مطلق الحق والخير والجمال وفى الوقت نفسه محب ، رحوم ، تنازل بمحبة أن يتجسّد نوره ، أو كلمته ، إنساناً سوياً ، فولُد المسيح من امرأة وهو المولود ، أو المنبثق فى الذات الإلهية قبل إنشاء الدهور ، وقبل الزمن .

يعرف المؤمنون البسطاء ، أن لا تعددية ولا تجزئة ولا انقسام ولا طبقية فى الذات الإلهى ، فالله الآب يعمل بالمسيح الكلمة، فالمسيح هو صورة الآب ، ضياء مجده ، جوهر طبيعته (كولوسى ١٥:١) ، نور من نور ، الفادى المخلص ، لا يأتى إنسان إلى الآب إلا بالمسيح الكلمة ، ولا يتحد إنسان بروح الله إلا بالمسيح ، إيمان المسيحيين أن الله – بكلمته المسيح – كشف لهم سرّه الإلهى ، فالله لم يره أحد قط ، ولا يستطيع إنسان أن يرى الله ، شاء بمحبته أن يراه الناس فى الكلمة المتجسد، فالمسيح الكائن فى الذات الإلهى والمنبثق أو المولود فى الذات الإلهى ، هو الوجود الإلهى الذى فى قدرة الإنسان أن يراه وأن يستوعبه عقله ، هو كمال الوحى ، والوحى الكامل .

ويؤمن المسيحيون أن الروح القدس ، روح الله ، روح المسيح ، جوهر الله ، وقوّة محبته ، هو مصدر النعمة، والذى يتّحد بكل

مؤمن ويملأه بالقوة الروحية التى بها يتأهّل الإنسان للاتحاد بالآب ، فى المسيح ، بالروح القدس .

إن الإيمان بالثالوث المقدس ، هو خلاصة الإيمان بالمسيحية ، بسرى التجسد والفداء ، بكل معانى الخلاص والحياة الروحية ، هو الإيمان المكتمل بالإله الواحد الأحد ، فالثالوث قمّة الوحدانية ، والشرح الوحيد الذى كشفه لنا المسيح ، والقدر المتاح للعقل أن يستوعبه عن الله .

* * * * *

ويأتى بعد ذلك الأسقف نسطور القسطنطينى (٤٢٨ م) وقال فى دهشة وسخرية : « لا أعرف كيف أدعو الله من كان طفلاً عمره شهران أو ثلاثة ، لهذا فإني برئ من دمكم ولن أكون بينكم من الآن فصاعداً .. ».

ولست أدرى كيف عقل نسطور فكرة طفولة وآلام اللاهوت ، وكيف فاته أن المسيح – الإنسان – الذى أخلى ذاته – آخذاً صورة جنين وطفل وشاب وأشبهنا فى آلامنا ، تلك أمور تمس بشرية المسيح ولا تمس لاهوته ، فحاشا لله أن يتألم اللاهوت ، ولعل هذا الموقف هو الذى أثار كيرلس الاسكندرى القديس فاستشاط غضباً على نسطور ..

هل تغير الحال فى عصرنا !؟

لازلنا نسمع من يسخر من فكرة التجسد الإلهى ، لازال السؤال مطروحاً منذ ألفى سنة : أيصبح الله إنساناً ، أيأكل الله ، أيشرب الله ، أيتألم الله ..!!

ترانا نحن المسيحيين ، قد أفرغ عقلنا من المنطق ، وأعميت

بصائرنا ، وغشينا جهل مطبق ، فصدقنا ما لا يعقل !!

* * * * *

لم تتراجع الكنيسة المسيحية عن إيمانها قيد أنملة ، لم تهتز عقيدتها لحظة ، صمدت أمام كل عاصفة أتتها من الشرق أو من الغرب ، وكرست جهودها ، وعصارة فكر قديسيها للدفاع عن أجمل الحقائق الإيمانية ، وعن أسمى وديعة سلمها لها المسيح ، جوهرة الوجود ، والكون ، والفكر، عقيدة الثالوث المقدس ، الله الواحد ، الأحد ، واحد فى ألوهيته ، وواحد فى قداسته وكماله ، وهذا الواحد الأحد مثلث الأقانيم فى ذاته الواحدة . متدفق فى جوهره ، حى ، قيوم ، هو

الله الحياة ..

الله النور ..

الله الحب ...

تلك قضية ، نحاول ان نخوض فيها ، فى خشية ورهبة لأننا نؤمن إيماناً راسخاً حتى آخر الأنفاس أن الله ، الثالوث المقدس ، حياتنا ومصيرنا . كلماتى عن الثالوث ، قطرات ماء أسكبها فى البحر الكبير ، لن تزيد إلى البحر شيئاً ، لكنها على الأقل ستتحد به ، كما تتحد أنفاسى المعدودة ، وصلاتى البسيطة بالجلال الأعظم ، والكمال المطلق .

* * * * *

- ٢ -

كلمـــة " الثالوث "

لم يعطنا المسيح لفظاً يحدد العقيدة الإيمانية التى كشفها لكنيسته عن الثالوث ، وتعبير الكتاب المقدس دوماً سهل ، وحىّ ومحسوس ، فالمسيح يقول عن الله الآب ، إنه واحد فيه ، وإنه أى المسيح ابن الله واحد فى الآب (يو ١٠ :٣٠). وفى الوقت ذاته يوضّح الكتاب بلا أدنى شك أن الله واحد لا إله إلا هو (غلا ٣: ٢٠).

* * * * *

ومنذ فجر المسيحية استخدمت كلمة " الثالوث " لتعبّر عن هذا السر الإلهى ، والكلمة فى حقيقة الأمر لا نملك غيرها للدلالة عن إيمان عميق وعقيدة إلهية لا تُحد ولا تُعرف ، وقد عانت الكنيسة منذ البدء ، كما عانى الآباء اللاهوتيون كثيراً من الآلام فى الدفاع عن العقيدة باستخدام لفظ الثالوث ، وهو لفظ قاصر ، محدود ، بشرى ، يوحى وبخاصة فى الكنيسة العربية بتعدّد الآلهة مما يقترب من شبهة الشرك أو الوثنية .

وقد عُثر على لوحة من الجرانيت فوق قبر القديس بطرس تعود إلى القرن الثالث الميلادى رمز للثالوث وهو رسم لمثلّث متساوى الأضلاع ، وبرغم أن المثلّث وهو بعض من علم الرياضة والهندسة وبعيد كل البعد عن معنى الله المحبة ، لكن ربما يترجم بشرياً هذا

السر الإلهى الذى يتوهّج فى كل عناصر الطقوس المسيحية "الليتورچيا " ويتألق دوماً فى تاريخ المسيحيين الأوائل ، الله الواحد الأحد ، الذات الإلهى السرمدى فى أشخاصه الثلاثة المثلث يمثل وحدة الجوهر ، وحدة الذات ، والشخصية لكل أقنوم ..

* * * * *

(١) باسم الآب

قال المسيح لرسله : اذهبوا ... عمدوا : باسم الآب والابن والروح القدس ... (مت ١٩:٢٨) ولو كان الثلاثة آلهة لكان يجب أن يقول اذهبوا وعمّدوا بأسماء الآب والابن والروح القدس .

فى العهد القديم قال الله عن نفسه إنه إله ابراهيم ، إله إسحاق ، إله يعقوب ، هذا هو اسمى (خر ٣:٦-١٥). وكان المسيح قد كشف لنا المستور وراء هذا القرار فى لفظ إله .. ومنذ بدء المسيحية تعلّم المسيحيون أن ينطقوا إشارة الصليب بقولهم باسم الآب والابن والروح القدس ، كأنهم يقولون نؤمن بالآب مصدر الابن ، مصدر الروح القدس .

وفى اللغة العربية ، حرف العطف " الواو " هام جداً لأننا نميّز فى إيماننا المسيحى بين الله الآب الذات الإلهى مصدر الابن بشخصيته، ومصدر الروح القدس بشخصيته ، واحد فى ثلاثة وثلاثة هم واحد .

(٢) أعمال الله كلها هى أعمال الثالوث المقدس

الله واحد .. هذه هى الشريعة نقطة الانطلاق، وأقانيم الله لا يميز بينها إلا ما استطاعت لغتنا أن تنطق به لتؤمن أن هذا الإله الواحد فى ذاته الإلهية انبثق أو ولد الكلمة جوهر من جوهر ،

وانبثق الروح القدس جوهر من جوهر ..

الله واحد .. جوهر واحد ..

أقانيم ثلاثة ، نميّز بينها فقط فى مصدر الانبثاق أو الحياة الإلهية فى أعماق الذات السرمدى .

الآب أسميناه كما علمنا المسيح كذلك، لأنه هو الذى يعطى الحياة .

الابن أسميناه كذلك كما علمنا المسيح، لأنه هو المولود أو المنبثق من الآب .

وبين الآب المصدر والابن المولود ، محبة خالصة ، جوهر إلهى من جوهر إلهى أسميناه كما علّمنا المسيح الروح القدس .

خارج عن هذه التسمية المبنية على المصدر ، والتى عبّرت عنها اللغة البشرية المحدودة ، لا فرق ولا تمايز ولا طبقية بين الأقانيم الإلهية (مجمع فلورنسا) .

فالخلق هو قدرة الله ، وإرادة الله ، وفكر الله ، الثالوث المقدس، لذلك يقول المسيح كل ما يعمله الآب أعمله (يو٥:١٧-١٩). وعند حلول الروح القدس على إنسان، يقول المسيح نأتى إليه ونقيم معه (يو ١٤:٢٣). فكل عمل الله هو عمل الثالوث .

(٣) لماذا ننسب بعض الأعمال إلى أقنوم إلهى

نقول : الآب الخالق ، الابن الفادى ، الروح الذى يقدس، لا يعنى ذلك مطلقاً استقلالية الأقنوم فى العمل، وإنما بلغة بشرية قاصرة نميّز بين صفة العمل ودور الأقنوم ، فننسب إلى الآب عمل الخلق والإبداع ولأننا بقدر عقولنا وإيماننا ننسب إلى الآب الذات الإلهى مصدر الانبثاق ، والتدفّق فى الذات الإلهى ، وفى قانون الإيمان

نقول : نؤمن بالله الواحد الله الآب ضابط الكل ، الآب كلىّ القدرة في حين أن الخلق هو عمل الثالوث ، فالثالوث كله ضابط الكل ، كلىّ القدرة ، وننسب إلى الروح القدس فعل التقديس ، لأن الروح القدس هو الحب المطلق الكامل، والله هو الكامل والقدوس ، وفى الحقيقة التقديس هو عمل الثالوث كله .

* * * * *

جاء تعبير فى الإنجيل عن المسيح (لو ١١: ٢٠) قال المسيح إنه يخرج الشياطين بإصبع الله ، صورة رمزية رائعة، فليس لله يد أو رجل، حاشا لله تبارك وتعالى، ولكن صورة توضّح لنا وحدة العمل فى الثالوث وإنما التميز هنا كما لو قلنا إن يد الإنسان هى التى تكتب ، أليس الكاتب كله قام بفعل الكتابة وإن نسبت الكتابة إلى يده .

عبارة : إرسال الله الآب ابنه يسوع المسيح، تقلق عقولنا أحياناً هذه العبارة ، فالشخص الرسول منفصل تماماً عمن أرسله ، وهكذا يبدو التناقض فى تفسيرنا . وبالرغم من أن الإرسال لا يتطلب دوماً الانفصال بين الراسل والمرسل منه، إلا أننا يمكن ان نميز ثلاثة طرق للإرسال :

أ- أن يرسلنى من له سلطان علىّ ، ولا أستطيع إلا الخضوع والطاعة له .

ب - أن يرسلنى نصحاً وإرشاداً لا أمر ذا سلطة .

ج - أن يرسلنى من عنده ، وأخرج منه ، فالشمس ترسل أشعتها والأثير يرسل إلينا أمواجه والأزهار ترسل لنا عطرها

الإرسال الثالث صورة تقرب إلى أذهاننا معنى أن الله الآب

أرسل ابنه الوحيد يسوع المسيح ، ولا يمكن أن يكون الإرسال له الذى يصدر ممن له سلطان إلى من عليه الخضوع والطاعة، فليس بين الأقانيم سلطان أو طبقية أو درجات، ولا يمكن أن يكون الإرسال الثانى فليس بين الأقانيم من هو أكثر حكمة أو من يحتاج إلى الإرشاد والنصح .

* * * * *

الله الآب أرسل ابنه الكلمة - الكائن فى الذات الإلهية - المسيح صرّح بهذا وقال " خرجت من الآب " (يو ١٦:٢٨). وهو نور الآب وتوهّجه وضياء مجده ، إنه عطر الآب منه وفيه ، إنه فكر الآب ، ورأينا مجده ، خرج من ذات الآب دون انفصال او تجزئة أو انقسام أو ابتعاد ، خرج من الآب ، دائم فى الآب ، فالثالوث المقدس هو الذى صنع روح الإنسان وجسّد الإنسان فى المسيح ، وننسب التجسد للمسيح المرسل من الآب إلى العذراء مريم بالروح القدس، ليتيح لعقلنا المحدود أن يدرك بعض أسرار العزّة والذات الإلهية.

وتبقى الحقيقة الكبرى الله واحد أحد ، لا إله إلا هو ، لا ينكرها إلا جاهل أو جاحد او مشرك أو وثنى ، ولكن الواحد الأحد ، فى ذاته السرمدية ثالوث ، واحد فى الجوهر واحد فى العمل ، واحد فى اللاهوت والقدرة ، والثالوث كله مع الابن فى الفداء، لكن يُنسب الفداء إلى المسيح الذى اتخذ طبيعتنا الإنسانية دون أقنوم الآب والروح القدس ، لا يجزّئ ذلك الأقنوم ، ولا يقسّمه ، وإنما بقدر لغتنا البشرية يصف العمل الذى قام به الأقنوم الثانى متحداً دوماً والى الأبد بأبيه وبالروح القدس ، لاهوت واحد ، وإن اتحد بالناسوت الأقنوم الابن .

الآب هو المصدر الذى وُلد فيه أو انبثق فيه الابن ، فالمرسل هو

الابن وليس الآب، أما الروح القدس فهو المرسل من الآب والابن لأنه انبثق من الذات الإلهي ... فالآب هو مصدر التدفّق الذاتي والانبثاق (لعل هذه العبارة توفق بين الفكر الأرثوزكسي والفكر الكاثوليكي).

الله – الأبدى – أى الله لا بداية له ولا نهاية ، وإن كان هذا التعبير سلبياً ، لكنها قدرة لغتنا المحدودة ، ويمكن أن نضيف أن الله ليس له قبل وليس له بعد ، لا يتغير ، ولا ينقص ولا يزيد ، كما جاء في رسالة يعقوب (١٧:١) ليس في الله تغيير .

الله وجود أبدى ، الله دوام حيّ ، الله ملء الحياة وكمالها ، الله لا زمن له كما عبّر ذلك لموسى النبى (خر ١٤:٣) " أنا الكائن " ، هذه أبدية الله ، وهذا هو الوجود لله الأبدى .

الله لا يتغير ، ثابت إلى الأبد ، وقد يعجز العقل البشرى ابن التاريخ والجغرافيا ، الذي حدّد الزمن من ماضي وحاضر ومستقبل قد يعجز عن إدراك فكرة الله " اللا زمنى " (وإن لمس البشر الذين صعدوا إلى الفضاء وإلى القمر معنى اللازمنى فليس على القمر زمان أو تقسيم للزمن).

كأن الإنسان أعمى منذ مولده ، يتشوّق إلى معرفة وتخيّل الألوان ، لذلك يصعب جداً ، بل من المستحيل أن تقرب له الصورة عن اختلاف الألوان في وضوح وجلاء ، لأن الأعمى وأسفاه ، غريب عن عالم الألوان ، والإنسان الذى يحيا فى الزمن ، وبالزمن كيف له أن يتخيل " اللا زمنى "، وعندما نقول إن الله تدفّق فى ذاته ، كلمة وروحاً، معنى ذلك أن الأمر قد حدث فى الله، فى أبديته ، مرة واحدة لاتتكرر ولا تعاد، إنه الله ، حاضر دوماً وأبداً. وعندما نقول انبثاق الروح القدس من الذات الإلهي ، المرسل من الآب والابن ، وعندما نقول شاء المسيح أن يتجسّد وأن يفتدى البشر نقول ذلك

كله بلغة بشرية محدودة ، يخيم على عقولنا ظلام الزمن المحدد وهذا يجرح الفكر الإلهى ، ومفهوم الذات الإلهى لقد تم كل ما ذكرناه مرة، لحظة ، فى أبدية الله فى كلمة ابدية ، لا نهائية ، ثابتة لا تتغير ، تم كل شئ فى تدفق لا ندرك كنهه ، إنها ليست لمحة زمنية ، وإنما هى لمحة إلهية لا تحدد ، ولا تؤرخ ، ولا تتكرر ، وقد أشار إلى ذلك المزمور ١١٨ آية ٨٩ يارب كلمتك ثابتة فى السماء .

(٤) يكلمنا الله عن الأبدية بكلمات زمنية

الله هو الذى سعى إلى الإنسان ، وليس الإنسان هو الذى سعى إلى الله ، وهو تبارك وتعالى الذى أقام حواراً مع آدم وحواء ، مع إبراهيم وموسى والأنبياء ، استخدم الله عباراتنا البشرية ليشدنا إليه ، ليقرّب أبديته ، وسرمديته ، وقداسته إلى عقولنا التى لا تدرك أمراً إلا من خلال الحواس والخيال ..

عبّر الكتاب المقدس عن أبدية الله بتعبيرات بشرية :

له الكرامة والمجد إلى أبد الآبدين (١تيمو ١٧:١)

ليس لملكه انقضاء (قانون الإيمان)

ملك قبل كل الأزمان (يهوذا ١ : ٢٥)

يحيا فى أبدية إلى أبدية (دانيال ١٨:٧)

قبل أن تلد الأرض والعالم أنت الله من أبدية إلى أبدية (مز٢:٨٩) .

ألف سنة كيوم واحد أمام عينىّ الله (مز ٩٠ : ٤) .

كل هذه العبارات ، تقرّب إلى أذهاننا بعض الشئ مفهوم أبدية الله ، إنها لا تحدد الحقيقة ، ولا تصفها كاملة ، بل تكاد تحوم حولها ،

وعلى الإنسان أن يتدبّر بعقله وتأمله ونقاء قلبه وضميره ليصل إلى أبعد من ذلك فى عالم الله الأبدى .

نقول الله حياة ، الله نور ، الله حب

هل يمكن أن تكون الحياة فى الله بدون عواطف أو أحاسيس ، أو يكون الحب جامداً لا حركة فيه ولا قوّة .

أو يكون النور غير فعّال او متدفق . او بمعنى بسيط هل الله دون إحساس أو عاطفة أو حركة؟ ، هل نتخيّل الله تمثال من مرمر وهو " النار " كما عبر الكتاب ، الله ثابت لا يتغير ليس معناه أنه بدون أعماق حب وعاطفة ووجدان ، ولقد صوّر لنا الكتاب المقدس عواطف الخالق بأسلوب بشرى ليؤكد لنا الحيوية المتدفقة فى أعماق الله، ومن أمثلة ذلك :

الله يندم على خلق الإنسان (تك ٦:٦) .

غضب الله شديد ولكنه متسامح (مز٧٨:٣١-٣٨) ، (خر ٣٢ : ١٠-١٤) .

حوار الله مع إبراهيم فى موضوع سدوم (تك ١٨ :٢٢) .

وحواره مع موسى فى موضوع العليقة (خر ٣:٤)

بل أحياناً يصوّر لنا الكتاب المقدس الله غيوراً ولا ينبغى أن نحزنه (أف ٤: ٣٠ ، إش ٦٣: ١٠) .

هل تتناقض هذه الصور مع القول بأن الله هو الأبدى الذى لا يتغير من جيل إلى جيل (يع ١ : ١٧). فإن كان الله يخاطبنا على قدر عقولنا ، وبكلمات بشرية ، وبتعبيرات تألفها أسماعنا ، وتنسجم مع طبيعتنا وبيئتنا ، فمعنى ذلك أنه يدعونا إلى أن نقترب منه ، أن نسعى إلى اكتشافه لا كفضوليين ، أو كباحثين

علميين ، وإنما من منطلق حبنا لخالقنا وعطشنا الروحى لمعرفته والاتحاد به .

فلغة الكتاب المقدس ، وحى الله فى لغة بشرية ، تنقل إلينا الفكر الإلهى ، فى إطار مفاهيمنا وعاداتنا ، لا تخدعنا ، ولا تحتقرنا ، وانما تسعى إلى أن تصل إلى أعماقنا ، كالعالم الفلكى الذى يكتب عن موكب غروب الشمس على عرشها الذهبى ، تمضى فى الأفق البعيد ، ترسل أجمل الأشعة وأبهاها ، ترى هل فعلت الشمس هذا، أم أنها لغة الإنسان ، وإطار إدراكه للأمور .

فالله الواحد العظيم القدوس الثالوث ، فى أعماقه الإلهية كل المشاعر والعواطف فى مطلق كمالها وجمالها .

ليس فى اللغات كلمة بديلة لكلمة المشاعر والعواطف للتعبير عن الحياة الإلهية فى أعماق الله ، نستخدمها مضطرين ، لنؤكد أن الله الحى ، فرح ، وحنان ، ورحمة ، وهل يمكن أن نجرّد هذه العواطف من صورتها البشرية لنرتفع بها إلى سموها الإلهى !! ودون أن ننسى ، وأن نسقط من فكرنا ، أن الله هو الله ، وحاشا لله ان يوصف ، أو أن يلم به عقل ، أو أن تحدده معانى ، ولكنها الطبيعة البشرية العطشى دوماً لمعرفة الله ، وللاتحاد به ، نتقرّب إليه بالصورة التى يستطيع خيالنا أن يرسمها ، ويستطيع وجداننا أن يتأمل فيها . ما أشبه الإنسان ، أمام سر الله ، بطفل صغير ، واقف على شاطئ المحيط العظيم ، يخشى الأمواج العاتية ، ويهاب الخوض فى الأعماق ، لكنه يدرك تماماً ، أن هذا المحيط الرائع يتدفّق حياة وحركة ، ولكن فى الطفل شوق عارم أن يلقى بكيانه الصغير فى مياه المحيط ، وأن على الشاطئ لينتشى بالسباحة على أطراف هذا المحيط .

ذات الله

اولاً : أعظم الثراء في الإيمان المسيحي عقيدة "الثالوث"، إنها النور الذي كشف لنا عن جلال الذات الإلهية ، إنها الوحي الخاص بالمسيحية ، فلقد عرفت البشرية منذ أبي الآباء إبراهيم – الله الواحد – الأحد – الصمد – الكائن – الأبدي ، وأقيمت العبادة لله الذي لا شريك له ...

وقبل تجلّي الخالق لموسى النبي بمئات السنين . وقبل تحديد عقيدة "الله الواحد" في الوصايا العشر على جبل سيناء .. قبل ذلك كله استطاع العقل البشري ، عقل الحضارة في تلك العصور ، عقل الفرعون المصري إخناتون ، استطاع هذا العقل أن يكشف "وحدانية الخالق" وكتب صلاته الرائعة إلى "الله الأكبر والأعظم" على جدران تل العمارنة (ملوي) ، ولم تزل هذه الصلاة رائعة حارة برغم أربعة آلاف سنة مضت .

وجاء المسيح ليعلن عن "ذات الله " لم يكن ليخطر على خيال البشرأن يدركوا سر الله، الله الذي لم يره أحد قط (يو١:١٨) أعلن سره المسيح المنبثق منه، من ذاته ، من حضنه ، ويعلنه في تصميم وثبات (مر١:٢٢) .

ظل البشر – وبخاصة العلماء منهم – قروناً طويلة مقتنعين بأن

الذرّة هى الوحدة الأساس للمادة ، وفجأة اكتشف العلماء أن فى كيان الذرة حياة متدفقة ، وأن فى تفجير هذه الذرة طاقات هائلة، ومن ذلك الوقت دخلت البشرية عصر الذرة .

وهكذا ظل البشر - وبخاصة العلماء منهم - قروناً طويلة مقتنعين بالله الواحد الأحد ، ولكنه "الله" المجهول ذاتياً ، حتى جاء المسيح وكشف للبشر عن حياة "الله الواحد" وعن ذات "الخالق" وكشف أن الله حياة متدفّقة إلهية ، ومنذ إعلان عقيدة "الله" الواحد ، الثالوث (حياة . نور . حب) خشعت البشرية ودخل الإنسان بالمسيح عصر إيمان جديد ، وكشف جديد من الوحى الإلهى، وبكل ما فى الكلمة من معنى ، جاءت عقيدة الثالوث "وحياً إلهياً" تتخطّى بالعقل البشرى مرحلة "الله الواحد الأحد - الذى ليس كمثله شئ" ودخل إلى مرحلة "معرفة حياة الله" وآمن بالمسيح أن الله واحد وفى الله الواحد (١) وجود أو حياة، (٢) ثم نور أو نطق أو علم، وهذه ثانية، ثم (٣) محبة أو روح، وهذه ثالثة ،

أهذا ينقص من وحدانية الله !؟ أهذا يشرك بالله !؟

أم تلك عقيدة اكتملت فيها أقصى قدرة العقل لفهم الله وحياته، عقيدة ارتفعت بالعقل، وبالإنسان ، وبالحياة ، المسيح وحده كشف عن هذه العقيدة ، وهذه العقيدة أدخلت عقل البشر ، وحياة البشر ، وإرادة البشر عالم "الله" وحياة الله ، وطوبى لمن له عقل يتبصّر (الله الواحد : هو الوجود ، هو الكلمة ، هو الحب) ...

ثانياً : عاش المسيح من ألفىّ سنة فى عصر له ملامحه الحضارية والدينية، وله طابعه المادى والتاريخى والجغرافى .

وعاش المسيح فى بيئة "كتاب مقدس" وبين قوم يؤمنون بأن "لا إله إلا الله - لا يكن لك إله غيرى - أنا الرب الهك" ، والقوم

المؤمنون ، تحيط بهم أمم وثنية مغرقة فى الوثنية ، مغرقة فى التعبّد للمادة والقوة ، مستسلمة للغرائز ، قوم يهود موحّدون ، متمسكون بالتقليد ، ينتظرون مخلصاً ، وأمم رومانية ، أشورية ، وفرعونية ، وفينيقية لها آلهتها ، وعقائدها وطقوسها ولغاتها .

وجاء المسيح ... يخاطب أهل عصره وبنى أمته ، أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، يخاطبهم على قدر عقولهم ، يعلن لهم حقائق الإيمان فى بساطة وسهولة ، ويلقّنهم ما يريد بالأمثلة ومشاهد الطبيعة ، وأحداث الحياة ، كان المسيح يخاطب البشر جميعاً، فجاءت كلماته بسيطة ، سهلة ، يفهمها الإنسان البسيط وتهز أعماق الفيلسوف :

إن كل أدباء الإنسانية وكُتّابها وشعرائها وفلاسفتها ، ليس عندهم نص يعادل جمال "مثل الابن الضال" ويصل إلى عمقه مع بساطته ، وإلى جلاله مع رومانسيته ، وإلى قداسته مع رقّته ،

ليس فى أعظم تراث اليونان والعرب والهند، وليس فى أعظم ما أنتجته عبقرية العصور الوسطى أو الحديثة نص يقف بجانب "عظة الجبل" ،

ليس فى كتب البشر نص يفيض قداسة وعظمة كمثل السامرى الصالح .

فكلمات المسيح – وحى إلهى – بشهادة أشد الملحدين عنفاً، بل كلمات المسيح هى الوحى الإلهى الذى أكمل العهد القديم، ووضع له الإطار النهائى، وحقّق هدفه ومعناه .

كثيرون– يقرأون الإنجيل – وقد لا يشعرون بما وراء البساطة فى التعبير ، ولا يلمسون السر الإلهى وراء هذا الأسلوب الرقيق من قيم روحية خالدة. وكثير من أعمال الفن فى السينما والمسرح

حاولت تجسيد كلمات المسيح وحياته ولكنها عرضت المظهر ولم تقدم شيئاً عن العمق ..

ولهذا فإن المسيح وحده ... كشف لنا عن سرالله الواحد "إن سر الله – هو الثالوث المقدس" .

ثالثاً : لنتقدّم بخشوع فى الكلام عن عقيدة "الثالوث" – ليغفر لى المسيح – ربى وإلهى هذه الجرأة ، وألتمس شفاعة القديس العظيم توما الأكوينى (اللاهوتى الكبير الذى طلب وهو على فراش الموت أن تحرق كل مؤلفاته قائلاً : سامحنى أيها الثالوث القدوس لأنى لم أكتب إلا كلمات بشرية ضعيفة). كما ألتمس صفحه عنى ، إذ أتكلم عن سر الله وأنا إنسان أقول مع إشعياء النبى "الله قدوس – وأنا دنس الشفتين" طهّرنى يارب لأنطق باسمك وعنك أيها القدوس .

الله واحد ... وهو الآب

وهذا الواحد هو الابن ..

وهذا الواحد هو الروح قدس ..

انتبه أيها القارئ ، ليس هذه "فزورة" بل هى حقيقتك أنت ، نعم أنت أيها الإنسان، ويا كل إنسان مع فارق التشبيه، أنت أيها الإنسان :

إنسان واحد .. وأنت أب

إنسان واحد .. وأنت ابن

إنسان واحد .. وأنت روح (صورة بشرية ، ولكنها ليست إلا وسيلة لتقريب الفكرة) .

مع فارق التشبيه المادى والتناسلى والمحدود فى الإنسان ، بينه وبين الله الواحد "روح محض ، تعالى الله عن المادة والتناسل الجنسى الغرائزى وعن الزمن المحدود ...

فى الكتاب المقدس ، بعهديه القديم والجديد ، الاسم يعنى رسالة جديدة ، أو دعوة وتكليفاً جديداً ، اختار الله لإبرام اسم إبراهيم – أباً للأمم ، واختار الله لابن زكريا اسم يوحنا (لو١:١٣) .

واختار الله لابن مريم اسم "يسوع" المخلّص (مت١:٢١) .. هذه الأسماء « شاول – بطرس – الصخرة ... الخ » كلها تدل على رسالة ، على تكليف لكن لا تدل على الشخصية ذاتها .

أما الله عندما يتكلم عن ذاته ، فاسمه يدل على شخصه وعلى سِرّه الإلهى ، يقول لموسى النبى "أنا الكائن" ...

ويقول المسيح: الله الآب ، أبى وأبوكم ، إنى صاعد إلى أبى "الله الآب". هنا تدل الكلمات على خاصية من خواص الله وهى الأبوة ، وهى الخاصيةِ الوحيدة التى بها نمّيز "أبوّة الله" عن "بنوّة المسيح" عن "روح الله". ليس هناك تمييز أو فرق فى ذات الله إلا بهذه الخاصيّة الأولى "الأبوّة". وقبل الخوض فى تفاصيل شرح العقيدة المسيحية الإلهية نعطى فكرة عامة موجزة مبسّطة، ثم نوالى الدراسة المتأنية ، نقول : الله واحد، والإيمان المسيحى إيمان توحيد (قلت إيمان ولم أقل ديانة) لأن المسيحية فى حقيقة الوحى أكبر من أن تكون ديناً أو ديانة ، إنها إيمان ونور وطاقة إلهية ، ولكن تطلق كلمة ديانة على الأمور الطقسية الظاهرية – ما علينا – فهذه فذلكة عابرة (قال المسيح فى إنجيل يوحنا : جئت لتكون لهم الحياة) .

المسيحية – إذن – توحيد ولك أن ترجع إلى العهد القديم والعهد الجديد، وتاريخ الكنيسة، ودراسة الطقوس لتتأكد أن المسيحية

توحيد لا غبار عليه ولا شبهة فيه، وهذه بعض الشواهد دون ذكر الآيات العديدة من العهد القديم: (تث ٤ :٣٩ ، ٤:٦ ،٣٩:٣٢) (إش ٦:٤٤ ، ٥:٤٥و٢١ ، ٩:٤٦) (ملا ١٠:٢) .

ومن العهد الجديد : (مر ١٨:١٠ ، ٢٩:١٢) ، (١كو٤:٨ ، ٦:٨ ، ٦:١٢) (غلا٣:٢٠) ، (رو٣:٣٠) ، (١تى ١٧:١) .

أضف إلى ذلك براهين الفلسفة والعقل وبخاصة البراهين الخمسة التى شرحها أرسطو (قبل المسيحية) أثبت فيها وحدانية الخالق بما لا يدع مجالاً لأى شك .

الله واحد إذن ..

وهذا الإله الواحد .. (انتبه – إننا نحاول أن نلتمس الحقيقة التى أوحى بها المسيح عن الله الواحد) .

الله الواحد : له ذات إلهية ، أو الكيان الإلهى الغير محدود ، أو الوجود الإلهى الأبدى .

وهذا الكيان الإلهى له نطق إلهى واحد .. أو عقل، وهذا الكيان الإلهى له روح إلهى واحد .

الله الواحد ذات إلهية ، عقل إلهى ، روح إلهى ، وهذا هو ثالوثنا ... فالذات الإلهية ، هى المصدر الأبدى للكلمة وللروح، فليس فى الله تعدّد ، او درجات ، أو نقص ، الله الكامل متدفّق فى ذاته من جهة (وهذا التدفّق الذاتى هو الثالوث) ومتدفّق فى خلقه ، يخلق الكائنات ويصونها فهو البداية والنهاية ، فالتدفّق الذاتى إلهى ، أبدى ، وما هو إلهى أو أبدى لا يتكرّر ، أما التدفّق الخارجى أو الخلق ، ففى كل لحظة يخبر الكون بعجائب الله .

الله .. له ذات ، وذات الله لها نطق إلهى واحد وحيد أحد، هو

المسيح ، وذات الله لها روح واحد وحيد ، هو الروح القدس .

علينا أن نعـرف فى هذه السطور أمـراً واحـداً : وهو أن الله الواحد ، ثالوث مقدس فى ذات الله ، أما التمايز والخصوصية لكل من الثالوث فقد عبّرنا عنها بأسلوب بشرى الله الآب الذى فيه الوجود ومنه الوجود ، الله الابن ، النطق ، والكلمة .. الله الروح ، المحبة والقداسة .

اللــه الآب

« فيه كانت الحياة » (يو ١ : ٤) الله .. أب ، وكلمة أبوّة فى ذهن البشرتعنى تناسلاً، والتناسل فى عرف البشر ذكر وأنثى مع أن الوجود ملئ بأنواع مختلفة من التناسل ليس فيها لقاء جسدى أو شهوة جنسية ، وفى الطبيعة المادية وفى النبات وفى أنواع من الطيور والحيوانات والحشرات تناسل ليس فيها الغريزة الجنسية بمفهومها المادى .

شروط الأبوة :

أولاً : الحياة اول شرط لتنبثق الأبوة فى جميع صورها، ولهذا يمتلك "الكائن الأب" الحياة ، فالموت لا يلد الحياة، والكائنات الميتة لا تعطى الحياة. ولكى تتحقق الأبوة يجب أن ينبثق الابن الحى من الأب الحى ، فالأبوة هى نقل الحياة ، فالحى يلد الحى بنفس طبيعته ومن جوهره ويحمل سماته وصفاته .

ونؤمن أن الله هو "الحى" ومنذ عهد موسى النبى أعلن الله عن ذاته أنه "الكائن" (خر٣:١٤). ومعنى ذلك أن الله موجود وله الوجود من ذاته وفى ذاته ... وفى العهد الجديد تكتمل العقيدة ، فقد انبثقت من ذات الله الحياة الكلمة ، حياة المسيح ، ويقول

القديس يوحنا «كما أن للآب الحياة فى ذاته ، فقد أعطى للابن أن تكون له الحياة فى ذاته» (يو٥:٢٦). لذا فالسيد المسيح يعلن أنه "الحياة" (يو١٤:٦ رؤ١:١٨).

الله الخالق ، القدوس ، الآب ، يختلف عن آلهة الوثنية التى لا تنطق ولا تبصر ولا تعطى الحياة (مز١٣٤:١٦) ، ومعنى أن الله هو الوجود وهو الحياة ، إنه هو الأبدية وهو الخلود ، وهو الحى الذى لا يموت ، وكانت الصفة الأساسية فى العهد القديم "أن الله هو الحىّ" ولذلك يقول رئيس الكهنة للمسيح "أستحلفك باسم الله الحى أن تقول لنا إن كنت ابن الله" (مت٢٦:٦٣). بل إن الله يقسم بذاته كما كان يعظ بولس الرسول الشعوب الوثنية بأن يعودوا إلى الله الحىّ (اع١٤:١٤) .

وإيماننا المسيحى يعتقد أن الحياة دعوة مقدسّة، هبة من الله. والله الحىّ هو رئيس الحياة ، ومبدعها وإليه المصير .

ثانياً : شرط ثان للأبوة أن تعطى البنوة من جوهرها وطبيعتها: الجسد من الجسد والروح من الروح ، فكل اختراع لأعظم عالم إنما هو صنع يديه وعقله لكنه لا يحمل أبوّته ، أما الكلمة فلم "يخلقه" الله ، لم يصنعه ، وإنما خرج منه ، من جوهره ، ومن طبيعته كما نقول فى قانون الإيمان : مولود غير مخلوق . وكما يقول بولس الرسول "مولود قبل كل خلق" (كو١:١٥) .

انتبه أيها القارئ ، إن الإنسان يعطى لابنه بعضاً من ذاته ومن طبيعته ومن كيانه ؛ أما الله فيعطى "كل ذاته وكل كيانه" لأن الأبوّة فى طبيعة البشر أو المادة انقسام وتجزئة، أما فى طبيعة الله الواحد روح محض فليس فيه تجزئة أو انقسام بل انبثاق ذاتى داخلى كلى ... وقد حدّد ذلك المجمع الرابع اللاتراني بقوله : « لا

يمكن القول بأن الله الآب أعطى بعضاً منه للمسيح أو جزئاً من جوهره "للكلمة" المتجسّد ، بل إن الآب أعطى الابن المنبثق من ذاته، وفى ذاته جوهره وطبيعته » ، هذه هى عقيدة الإنجيل السامية المترفعة الإلهية .

وكلمة (أعطى) ، كلمة بشرية ، عاجزة ، محدودة ، إنها فعل ماض له حاضر (مضارع) وله مستقبل " سيعطى " لكن فى ذات الله لا ماضى ، لا حاضر ، لا مستقبل ، الله الأبدى ، ذاته الأبدية ، تدفّقه أبدى ، عطاؤه فى ذاته لا يخضع لزمان أو لمكان ، المسيح من الآب ، فى ذات الآب ، من جوهر الآب ، الأبدى .

إن هذا يشرح لنا روح العطاء فى العهد القديم : « أعط من خبزك للمسكين » (إش ٧:٥٨) ، ويوحنا يعلن : « الابن الوحيد الذي هو فى حضن الآب » (يو١٨:١) .

أعماق الله ... أترى الله بغير أعماق ...

حضن الله ... أترى الله بغير حضن ...

فى البدء خلق الله الإنسان ، فى البدء أعلن الله عن ذاته بلفظ الجمع « لنخلق الإنسان على صورتنا ومثالنا » .

فلنتوقّف عن القراءة والكتابة لحظة ...

يا للسر الإلهى ... الله العظيم يعطى الحياة ، ما أجمل هذه الصورة ...

أيمكن أن نقول إن الله الحىّ هو ثلاثة ؟ كيف ؟ من يصدق ؟ أيتناقض القول بأن الله متدفّق فى ذاته ، متدفق فى طبيعته ، أيتناقض هذا مع القول بأن الله واحد أحد لا شريك له ، لم يلد ولم يولد "جنسياً" ولم يكن له كفواً أحد "من خارج ذاته" .

ألا زلنا حيارى أمام سر الثالوث ؟؟ أجل. فلنبق حيارى أمام عظمة الله وذات الله وحياة الله، ونحن ما زلنا حيارى أمام سر النملة البسيطة الدّابة على الأرض .

بين الآب والابن

ابتعدت العقيدة المسيحية تماماً عن ملابسات الشرك بالله وعن الوثنية فى تعدد "الله"، وكذلك ابتعدت تماماً عن مفهوم الأبوّة التناسلية وعن البنوّة المخلوقة ، وقال الإيمان المسيحى ، إن الله – الآب – أعطى ذاته كلها للابن ، وأن الابن هو والآب جوهر واحد ، وأن التمايز بين أبوّة الله وبنوّة الله، تمايز فى الانبثاق أو فى العطاء ، الله ، الحىّ ، والله الحياة انبثق فى ذاته، فالمسيح – الكلمة – غير مخلوق ، ولادة روحية عقلية ذاتية .

نتقدّم الآن خطوة فى تفهّمنا لهذه العقيدة الانجيلية، وهذا الكشف الإلهى الذى جاء به المسيح ليتم للإنسان إيمانه فى الله ويدخله منذ الأن فى حياة الله ، وفى سر الذات الإلهية .

الله الآب ، والله الابن ، هما واحد ، لا يعرف الآب معرفة تامة إلا الابن و لا يحب أحد الآب كما يحبه الابن (يو١٧)، ولأن الانبثاق ذاتى ، ولأن الحب إلهى ، ولأن المعرفة إلهية ، بين الآب الحياة والابن المنبثق من الآب ، ولأن الآب والابن جوهر واحد ، فهما "الله الواحد" أنا والآب واحد (يو١٠:٣٠) .

يقول القديس أوغسطينوس : « عندما يعلن المسيح أن الآب فىّ، وأنا فى الآب ، وأن الآب وأنا واحد ، فإن المسيح يشرح أنه والآب

جوهر واحد، وأنهما متميزان بالانبثاق، فهما واحد ، وفى الوقت ذاته واحد، له الحياة فى ذاته [الآب] وأعطى الابن المولود منه الحياة فى ذاته ، والجوهر الواحد ، أب وابن . »

ليس الآب أكبر من الابن

ليس الابن أصغر من الآب

ليس الروح القدس أكبر أو أصغر من الآب أو الابن

ليس فى ذات الله - أكبر أو أصغر ، ليس فى ذات الله أول أو ثانى أو ثالث ، ذات الله واحدة ، والذات الواحدة ، حيّة ، لها الحياة ، هى الوجود ، وهى النور وهى الحب ، فالله الحياة ليس أكبر من الله النور ، ولا أكبر من الله الحب ، إنه الله الواحد ، حياة [آب] ونور [ابن] وحب [روح قدس] .

هذه عقيدة الإنجيل ، ومنذ انطلاقة الإيمان المسيحى ، فصفة الأبوّة تلخص كل إيماننا فى الله. كان فى العهد القديم يقال عن الله : القدير ، الأبدى ، وأما فى العهد الجديد وفى قانون الإيمان فقد أصبحت "أبوة الله" تسبق كل هذه الصفات، وتعطيها عمقاً رائعاً ومعنىً جديداً فنقول : الله الآب القدير، الله الآب القدوس ، الله الآب الأبدى ...

إن صفات الله ، موجودة فى كل الأديان القديمة ، وغير القديمة ، فى الأديان التوحيدية ، وفى الأديان غير التوحيدية، صفات الله ومنها الواحد ، القدوس الأبوى ، الرحمان ، الرحيم ، الخالق ، المهيمن ، المتكبرّ ، القوى ، ....الخ كلها صفات كتبها إخناتون الفرعون الفيلسوف ، وكتبها بوذا ، وكتبها كونفوشيوس ، بل وتجد بعضها فى الأديان البدائية .

المسيحية وحدها أعلنت المسيح ، الوحى الكامل وكمال الوحى حول "الله الآب" ، صفة الأبوة كشفت عن ثراء العقيدة المسيحية ، وكل الصفات الأخرى لم تكن تعطى بعداً جديداً فى فهم "الذات الإلهى". أغلب الصفات التى يصلّى بها البشر - قبل المسيح - إن لم يكن كلها موجودة فى العهد القديم ، وكان الله - تبارك وتعالى - يكشفها للأنبياء ، تارة يعلن أنه "الكائن" ، وتارة يعلن أنه "الحى الدائم" ومرّات كثيرة يعلن أنه "القدوس" ، حتى جاء المسيح وأعلن "ابوّة الله" الله آب ، وينبغى أن نحترس فى تفهم "أبوّة الله" حول ثلاث نقط :

١ - يجب أن يتجرّد فكرنا تماماً عن أى معنى للأبوّة البشرية.

٢ - يجب أن نبتعد تماماً عن إى معنى جسدى أو مادى، فالله روح محض (يو٤:٢٤) .

٣ - يجب أن نجرد إيماننا تماماً من أى معنى زمنى فى مفهوم أبوّة الله ، فالله ليس فيه ماضى أو حاضر أو مستقبل، إنه الوجود ذاته إنه الأبدى (رو١٦:٢٦) والله غير محدود ، إن الله لا نهائى (مز١٤٤:٣).

ولقد عانى اللاهوتيون المسيحيون ، فى فجر المسيحية أشد العناء ، وذاقوا عذاباً أليماً فى الدفاع عن هذه العقيدة ، وفى وضعها الموضع الصحيح فى سياق الإيمان الجديد ، ولقد لخص لنا القديس أوغسطينوس الاعتراضات التى جابهتها العقيدة فى مهدها فأشار إلى أن البعض نسوا أن الله واحد ، آب وابن ، فقللوا من شأن الابن ظناً منهم أن ذلك دفاع عن وحدانية إلله ، وأسقطوا لاهوت المسيح واستراحوا، وبعضهم رفض قبول العقيدة ودمجوا الأبوة والبنوة، ولم يتفهموا تمايز الانبثاق، جاهدت الكنيسة ، جهاد

الشهداء لتصل العقيدة نقية واضحة راسخة معتمدة على قول المسيح : «اذهبوا .. علّموا .. أنا معكم إلى منتهى الدهر » (مت٢٨:١٩) .

انتهت معارك اللاهوت بقمة مجمع نيقية أوائل القرن الرابع الميلادى (حوالى سنة ٣٢٥) بإعلان قانون الإيمان الذى نصليه حتى الآن شرقاً وغرباً ، ولبطريرك الإسكندرية العظيم أثناسيوس الرسولى ملحمة الجهاد فى هذا المضمار التاريخى ، وفى القرن الخامس عشر ، أعلنت الكنائس الشرقية فى وضوح هذه العبارة الله واحد ، وفى الله كل وحدانية ، الله واحد ، والثالوث لا يجرح وحدانية الله .

نعم الله واحد ، فى الوجود ، فى الجوهر ، فى اللاهوت ، فى علمه ، وفى هذه الوحدانية ، ثالوث نميز بينهم – بقدر عقولنا – بأمر واحد هو تمايز "الانبثاق" أو المصدر ، إن العقل البشرى ليرفض تماماً أن الله "أكثر من واحد" ، وذلك لأبسط أدلة ، أن الله لا متناه ، واللامتناهى لا يتعدد ولا يتجزأ أو لا ينقص أو لا يزيد. الله واحد ، منبثق فى ذاته ، حىٌ فى كيانه ...

فالقول بأن الآب والابن والروح القدس – يكونون إلهاً واحداً – هذا خطأ عقائدى – فلنحترس ، بل نقول الله الواحد وفى ذاته هو ثالوث ... أترانا ندرك الفرق !؟

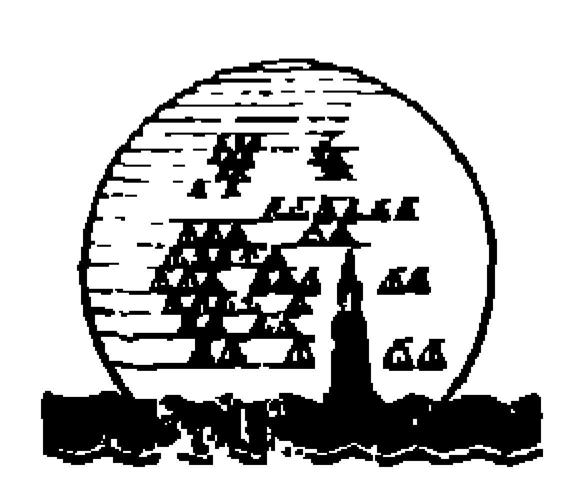
اعتراض : لماذا نقول : المسيح الكلمة – الابن الوحيد ! .

نقول : إن الله أعطى ذاته للكلمة ، للمسيح ، الذى ولد من ذات الله ، فى ذات الله ، ولادة أبدية إلهية ، والأبدى والإلهى لا يتكرر ، وإلا لكان هو هو المسيح. فلنحترس أمام السر الإلهى ، فالذات الإلهى واحد ، أحد ، وتدفقه واحد ، أحد، أو انبثاقه واحد ، أحد ،

وبالتالى فلا مسيح إلا الكلمة المتجسد لا ثالوث إلا الله الواحد ولذلك يقول يوحنا (١:١٨) الابن الوحيد المولود من الآب .

وعندما يعلن المسيح « لا يأتى أحد إلى الآب إلا بى » (يو١٤:٦) يشرح لنا أكثر العلاقة بين الثالوث المقدس فى الذات الإلهى "الواحد"، فالتمايز كما قلنا تمايز مصدر الانبثاق نطلق عليه بلغتنا البشرية "أبوة الله" وفيما عدا هذا التمايز ، فليس فى ذات الله أعمال أو قوى تفصل بين الأقانيم ، فالمسيح "المتجسد" هو الطريق إلى الله الآب .

لأن المسيح كائن فى ذات الآب .. وتجسّده ، لم يفصله ولم يخلطه ولم يبعده عن كيان الله بل هو قائم دائماً أبداً فى الله، ولذلك نختم دائماً صلاتنا بقولنا "بالمسيح يسوع ربنا" .



المسيــح الابــن

مازلت أحاول أن التمس الطريق إلى مزيد من الفهم للعقيدة الأولى فى المسيحية ، عقيدة الثالوث، ومن أعجب الأمور أن المذاهب المسيحية قد تصارعت فيما بينها وتقاتلت واختلف لاهوتيوها وفلاسفتها ، بل وذهبوا إلى أبعد من ذلك حين وصم بعضهم بعضاً بالهرطقة ، ومازلنا نعانى حتى يومنا من الماضى الأليم ، ومازالت هناك عقليات متجمّدة منذ قرون مضت ، سجنت فكرها فى متحف قديم وتأبى أن تفتح للروح منفذاً ، متى نتخذ الماضى تراثاً مجيداً لحاضر إيجابى بنّاء ، ولمستقبل أكثر نضوجاً ، وأكثر تواضعاً، وأكثر حباً ...

أقول إنه برغم شدة الاختلاف بين المذاهب المسيحية فى عقائد كثيرة إلا أنها وقفت جميعها بلا استثناء خاشعة أمام سر الثالوث المقدس ، كلها تؤمن بالله الواحد ، مثّلث الأقانيم ، الله الواحد ، أب، وابن ، وروح قدس ... هذه نقطة

ثمة نقطة أخرى: لم يجابه المسيحيون حواراً صاخباً كما واجهوه فى الدفاع عن شخصية المسيح الابن ، الكلمة ، الله المتجسّد ، منذ أريوس إبان القرن الثالث الميلادى وصمود الكنيسة خلف أثناسيوس العظيم ، وثورة نسطور وصمود كيرلس العظيم ، ثم

انتشار النسطورية فى شبه الجزيرة العربية ، وتأثيرها الحادّ والجذرى فى إيمان المسيحيين فى شبة الجزيرة ، فى شمالها وجنوبها ووسطها، وما تبع ذلك من تاريخ غيّر وجه الشرق ، وهزّ أركان العقيدة المسيحية ، وذلك كله لم يجرف أبناء الإيمان والغالبية الكاسحة من مسيحيى الشرق والغرب عن الإيمان بشخص المسيح .

بل وأعتقد أن قضية الإنسان المسيحى فى عصرنا فى مواجهة التيارات والملل والفلسفات ، هى قضية إيمانه بالثالوث، وبنوع خاص إيمانه بشخص المسيح ، أجل إنى نهلت إيمانى من إيمان والدىَّ - رحمهما الله - وورثت عنهما المسيحية وفضائلها ، غير أن مسيرة حياتى كانت بحثاً دائباً لا يمل ودراسات شاقة لا تُجامل ، بل إنى رغبت أن أتخصّص فى إيمان غير إيمانى ، وفى عقيدة غير عقيدتى ، وقرأت الكتب الكثيرة ، كتباً تتنكّر للمسيحية وعقائدها ، وكتباً ترفض الإيمان بالمسيح .

أقول إننى أقر وأعترف أن بعد دراساتى وأبحاثى وبعد مسيرة خمسين عاماً ، أقر بأن المسيح هو الرب الإله الابن الوحيد المولود من ذات الآب وأنه المخلّص الفادى ، وأشهد أننى ازددت حباً له ، وإيماناً به واتحاداً بسرّه على مر الزمان ... وليس لى هدف فى بقية حياتى إلا أن يقبلنى إذا جئت إلى ملكوته ، وأن يغفر آثامى وذنوبى ، وإن لم يكن فى حياتى صلاح ، ففيها حب عميق لشخصه ، وسعى لا يكل للامتلاء به ، إلهي اقبل كلماتى عنك بواسع رحمتك .

(١) الكلمة

من الأمور البديهية ، أن الآب يمتلك الأبوة ، ولا أبوّة بدون بنوّة، وإنجيل يوحنا فى روعته اللاهوتية، وفى فكره المحلّق فى

أعلى مراتب اللاهوت ، يأخذنا خطوة إلى فهم أكثر لمعنى بنوة المسيح، يقول يوحنا (١:٤) : « فيه كانت الحياة » ثم يضيف و "الحياة كانت هى النور »، والمسيح يقول عن نفسه « أنا ... الحياة » ويقول أيضاً « أنا ... النور » .

كيف يكون الابن هو النور ؟

يوحنا - أيضاً - يعطينا لفظاً يضفى نوراً على نور فى معنى "بنوة المسيح" إنه يقول « المسيح هو .. الكلمة » .

انتبه عزيزى القارئ ...

نقول عن إنسان : إن له الكلمة العليا ...

ونقول : إن كلمة فلان هى قانون وحجّة ...

فالكلمة هى "وجود" ووجودها له "معنى" .

(٢) الكلمة .. موجودة فى الأعماق

لا نظن أن الكلمات التى ننطق بها بشفاهنا هى وحدها الكلمات، فقبل أن نتلفّظ بالكلمة فقد نطقناها فى أعماقنا ، قد فكّرنا فيها ، ثم جسّدناها حين نطقنا بها، فالكلمة ثمرة الفكر والذكاء والخيال والوجدان والأحاسيس ، عندما ننطقها بلساننا وبشفاهنا نكون قد عبّرنا بها عما يدور فى الأعماق وفى الفكر ، والكلمة هنا ليس معناها " اللفظ " أو التعبير فى اللغة فحسب، هذا وجه من وجوه معناها ، ولكن الكلمة تعنى أيضاً كل ألوان التعبير والفنون ، إنها عصارة الفكر والوجدان والخيال والخبرة ..

والله ، من ينكر أنه مفكر ... لا نهائى ...؟ من ينكر أن له أعماق

لا نهائية ...

فالكلمة هي فكر الله ...

والله ، لا جسد له ولا لسان ، أستغفر الله ، الله روح محض ، الله فكر محض ... ولذلك فالله هو فكره وكلمته وروحه .

إن كان الإنسان قد خُلق على صورة الله ومثاله كما نؤمن جميعاً ، فالصورة تعطى ملامح الشخص ، بعضاً من ملامحه ، فكم بالأحرى الكلمة هي جوهر الفكر والأعماق ...

(٣) الكلمة ... ابن الآب

أن نقول عن المسيح إنه "كلمة الله" ، ذلك لا يعنى أن "حجمه" أقل من الآب، أو أن "كيانه" أقل من كيان الآب ، أو أنه "جزء من الآب"، فكل هذه العبارات إنما عن الأشياء المحدودة بالزمان والمكان والعمق ، أما الله سبحانه وتعالى فهو اللا متناهى الذى لا يتجزأ ، القدوس الذى لا يُحد، الحياة التى لا تقاس ، بل إن فى التعبير البشري أحياناً ما يؤكد قضيتنا ، فنحن نقول إن الفن ولادة ، فالفنان الأصيل يلد فنه ، والشعر الأصيل ولادة ، الفكر الأصيل ولادة ، فهنا أبوّة هى أبوّة الأديب ، وهنا بنوّة فكره وشعره وأدبه .

يقول بولس الرسول (عب١٢:٤) « إنه رسم (صورة) جوهر الآب ».

فالكلمة « الإلهى » له طبيعة وصورة الله الآب : «فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان الله » (يو١:١). فالإنجيل يؤكد أن الكلمة "أبدى" وكما أشار فى مزمور داود النبى حين قال : « كلمتك حية يا رب إلى الأبد » (مز٨٩:١١٩) .

وكما أن فكرنا ، يتجسّد فى كلمتنا وتعبيراتنا ، ويبقى فكرنا

فى أعماقنا ، بعضاً منا ، من كياننا، كذلك - مع فارق التشّبيه البشرى ، فإن الكلمة "المتجسّد" هو إلى الأبد فى حضن الآب (يو١:١٨) .

وكما سبق وأشرنا أن الله ينبثق فى ذاته ، انبثاقاً إلهياً - أبدياً - قدوساً ، انبثاقاً واحداً وحيداً فالكلمة "الإلهى" هى الكلمة "الواحدة" الوحيدة ، اللا نهائية ، لأن فى الله لا يوجد كلام ، أو أفكار بل توجد "كلمة الله"، ويوجد "فكر الله"، فالله روح بسيط .

(٤) الكلمة ... والصمت

يا إلهى كم هو عذب أن نتأمل فى جمالك وغناك وعظمتك ، وكم هو رائع أن يتجاسر عقلنا بنعمة مسيحك، أن يدخل ليتفهّم أعماقك وأن يخطو ولو عتبة واحدة من أعتاب مجدك .

ولكن يا إلهى كم هو صعب وشاق أن يتخيّل إنسان حياتك الإلهية ، اللامتناهية ، المتدفّقة فى الصمت والسكون، وفى الأبدية ، إنك يا إلهى - عفواً لتشبيهى الضعيف - إنك نبع الماء الحىّ (يو٤ :١٤) .

أجل حياة الله فى الصمت ، ولكن متى كان الصمت خالياً من الحياة؟ ومتى كان الصمت فراغاً أو جموداً ؟

الله روح محض ...

ولكن أليس فى صمت المهندس ... فى صمت الطبيب ، فى صمت العالم والفيلسوف حياة تتدفّق وتجلجل فى الأعماق أكثر ضجّةً من ضوضاء مدينة صاخبة ؟ .

ومتى تهمس إلى إنسان ؟ أليس عندما تُسِرّ له بشئ لا ترغب

فى إعلانه ، أو بأمر له قدسية عندك وله أهمية خاصة؟؟ ترى ماذا يدور فى أعماق الله ؟ بين الله وكلمته ، بين الله وروحه ؟ ألا يعبّر عن ذلك تساؤل بولس الرسول (١كو٢:٩) « أشياء لم تسمعها أذن بشر ، ولم تخطر على قلب إنسان » .

يا لعظمة السر الذى كشفه المسيح ، ما أعظم الله ، وما أبعد حدود عقلنا عن سبر غور الحياة الإلهية ، إنها صيحة الرسول بولس « ما أعمق أحكامك يا الله ، ما أصعب طرقك عن الفحص ، فمن يعرف فكر الله » (رو١١:٣٣) .

(٥) المسيح ... كلمة الله ، يكشف لنا بعضاً من حياة الله

« تكلّم حتى أراك » يقول الفيلسوف سقراط ، ولن يستطيع إنسان أن يفهم إنساناً إلا إذا سمعه وأنصت إلى كلماته ، ودخل إلى أعماقه عن طريق حواره وتعبيراته ، ولذلك أمر المسيح تلاميذه أن يبشّروا، وأن يتلمذوا ، لم يأمرهم بالكتابة بل أمرهم بالشهادة الحيّة بالكلمة ، فالكلمة هى الجسر الذى نعبر عليه إلى عقل وقلب الآخرين . وشدّد بولس على أهمية بشارة الكلمة إذ « كيف يؤمن من لم يسمع » (رو١٠:١٤) ...

كل كيان المسيح – كلمة الله – إنه تجسّد الكلمة الإلهية ، تجسد الفكر ، إنه الله الحى الذى بعد أن كلمنا بواسطة الأنبياء أرسل لنا كلمته بشراً سوياً ليكون خميرة لإنسانية جديدة وحياة جديدة ، والمسيح يعلن أن الحياة الأبدية حياة السماء هى أن نعرف الله الآب (يو١٧:٣). ولا معرفة حقيقية – عميقة – إلهية – لله ، إلا عن طريق معرفة المسيح كلمته "فى الجسد" .

(٦) المسيح الكلمة ... الابن الوحيد هو الحقيقة

« أنا والآب واحد » ، « أنا فى الآب والآب فىّ » (يوحنا ١٤ : ١١) عبارات المسيح تنير لنا طريق التفكير فى شخصية المسيح ، إنه انبثاق الله فى ذات الله ، جوهر واحد ، طبيعة إلهية واحدة، وبالتالى علم إلهى واحد ، فكل ما للآب من معرفة ، وكل ما للآب من حقيقة هو للابن ، ليسا هما اثنان ، ينتقل العلم من فوق إلى أسفل، من المصدر إلى الكلمة المنبثقة منه ، بل ذات الله الواحدة ، علم الله، حقيقة الله ، هى ذات المسيح ، علم المسيح ، حقيقة المسيح ، لو اعتمدنا لأن عقلنا محدود ، على تشبيهات محسوسة ، لقلنا ما الفرق بين النهر المتدفّق، وبين ماء النهر فى شماله وجنوبه ، إنه النهر ، لا تمييز بين مائه عند النبع ومائه عند المصب ، غير أن هناك نبعاً يتدفّق، وأن هناك ماءً عند المصب ...

لذلك لا نقول إن المسيح يمتلك الحقيقة ، بل نقول إن المسيح هو الحقيقة ، الحقيقة المطلقة ، والحقيقة الكاملة الشاملة، ولذلك نرفض أية حقائق لا تنطلق من شخص المسيح أو فكر المسيح أو مبادئ وخلق المسيح ...

بالمسيح الحقيقة ، يجب أن يتخلّص كل إنسان من الضلال والعنف ، والشكّ ، والجهل. إن حياة الروح حين تتّحد بحياة المسيح، تستشرف آفاق الدنيا والآخرة، وتسمو فوق جبال الظلام والظلم.

(٧) المسيح هو النور

نقول مع متّى الرسول (مت٤:١٦) « نور أشرق على الشعب السالك فى الظلمات وفى ظلال الموت ». إن النور الحقيقى هو نور

"الحق" فحسب ، والإشعاع بالنور قد يأتى من فكر أستاذ أو عالم أو مرشد. إن أديسون أنار العالم بعبقريته حين اكتشف "التليفون" وماركونى أنار العالم بضوء أقوى من الكهرباء حين اكتشف اللاسلكى ، وباستير أنار الطريق أمام الدنيا حين اكتشف خبايا الميكروبات ومفعولها ، هذا فى مجال العلم ...

والشئ ذاته يقال عن ديكارت حين مزق حجب الخرافة ووضع العقل على عرشه ، وعن بيتهوفن حين استلهم أروع ألحان تهز كيان إنسان ...

والشئ ذاته يقال عن الطفل يسوع حين فجر تيار الحب والبساطة فى الحياة الروحية، وعن الأم تريزيا فى عصرنا حين وضعت أساس القيمة الأخلاقية للاهتمام بالمنبوذين والمعوقين ..

قل ما تشاء عن شموع بشرية أضاءت دروب الحياة فى عصورها المختلفة وفى كل مجالاتها المتنوعة لكن – المسيح وحده – يقول : أنا النور ، النور المطلق ، النور اللامتناهى، المسيح هو نور ليس كأنوار الأنبياء والعلماء والقادة وإنما هو "النور" هو "الكلمة" هو "الانبثاق الذاتى فى الله" هو "الابن لأبى الأنوار" (يع١:١٧) «الذى يسكن فى النور الذى لا يقارن به ، الذى لم يره إنسان ولا يستطيع إنسان أن يراه » (١تى ٦:١٦) «إنه ضياء النور الأبدى » (حكمة٧:٢٦).

والمسيح هو النور الحقيقى الأوحد الذى ينير حياة كل إنسان أت إلى الدنيا (يو١:٩) « والذى يتبع المسيح لا يعرف الضلال والظلمة لن تدركه » (يو:١٢).

فى نور المسيح وحده نرى الحقيقة ...

فى وحدة المسيح وحده نعيش الحقيقة ...

كما عبّر داود فى مزموره (٩:٣٦) « بجوارك نبع الحياة وفى نورك نرى النور » ...

أى اتفاق بين النور والظلام ؟ بين المسيح والشيطان (٢كو٦:١٤)

هذه رسالة المسيح ، أن يتحدوا بالنور الحقيقى ، ليعيشوا حياة النور والحق .

أخيراً وليس آخراً ، أردّد مع الكنيسة فى طقوسها المجيدة هذه الكلمات الرائعة : « أيها المنبثق من ذات الله ... أيها الكائن فى ذات الله . أيها النور المولود من النور . أيها الموجود قبل الوجود . أيها الابن – وحيد – واحد . مع الآب فى جوهرك وطبيعتك . أيها المسيح أسجد لك يا إلهى . اقبل صلاتى أيها الكلمة الحيّة . المتجسّدة فى طبيعتها » (لحن قبطى ليوم الجمعة العظيمة يعرف " بامونوجنيس " – الأوحد فى جنسه – وهو من أروع الألحان الدينية الخالدة ، لعله مستوحىً من الألحان الفرعونية الراقية) .

الروح القدس

مقدمة : أن يفهم الإنسان المثقل بقيود المادة والغرائز ، المطحون تحت وقع الهموم اليومية ، المحدود فى عقله وقدرات هذا العقل ، القلق الحائر بين أديان وفلسفات ومذاهب ... أن يفهم الإنسان سر الإله الواحد ، ذلك أمر فوق طاقته ، أضف إلى هذا البحر الهائج من الفكر والفلسفة ، قلة المفكرين المتصوفين الزاهدين المتجردين فى تاريخ البشر ، وميل الإنسان بفطرته المجروحة من جراء خطيئة آدم إلى الأمور السهلة والعقائد البسيطة ، فنحن أمام اكتشاف إلهى قبل أن يكون اكتشافاً إنسانياً عقلياً ، نحن أمام سر "الذات الإلهية" ، والمسيح وحده فى كل مسيرة العقل البشرى ، ومسيرة الاجتهاد البشرى ، وحده المسيح ، يعلن حقيقة "الذات الإلهية الواحدة" مثلّثة الأقانيم .

وقد وصلنا إلى بعض التوضيح فى قمة العقيدة المسيحية ، العقيدة العظمى ، عبقرية البشارة المسيحية ورونقها وبهاء كمالها وجمالها ، وصلنا إلى أن الله سبحانه وتعالى الواحد الأحد ، إله حيّ متدفّق عطّاء ، إله كريم محب قدوس ، وأنه تبارك اسمه لا نهائى فى ذاته ، ولا نهائى فى كلمته ، والله الواحد الأحد خالق ، مهيمن ، جميل، كما تدلنا آياته ومعجزاته فى الكون الفسيح الذى يحيط

بنا والذى يأخذنا بجلاله ودقّته واتساعه واستمراره وتدفّقه خارج ذاته ، يخلق ، وينظم ويسيّر الوجود والطبيعة فى أحسن صورة وأبدع قانون ...

والله الواحد متدفّق فى أعماقه لأنه حىّ ، وهذا التدفق الذاتى هو ثالوثنا الذى نؤمن به ، ما أيسر أن يرفض الإنسان الأمور الصعبة والعقائد السامية ، وما أسهل أن يقفل الإنسان باب عقله ويكتفى بأمور غرائزه وأحاسيسه ، ولكن لحسن حظ البشرية أن الذين فتحوا أبواب العقل كان لهم طاقة الجهاد ، فقد أُحرق جاليليو لأنه نادى بأن الشمس ثابتة فى مدارها، وأن الأرض هى التى تدور وقد لا يعلم تلاميذ الابتدائى والإعدادى والثانوى أن الذى قدم لهم هذه الحقيقة البسيطة فى نظرهم مات شهيداً لهذه الحقيقة...

وقد لا يعلم الكثيرون أن الذى أضاء الدنيا بالكهرباء واكتشف هذا التيار الموجب والتيار السالب مات معوزاً فقيراً لا يملك ثمن كفنه. وقد لا يعلم البشر أن الذين حملوا فى قلوبهم وهج القداسة والفضيلة، وأناروا الحياة ودروبها، ونادوا بالعدل والحب ماتوا فى السجون وأُلقى بهم للوحوش،.

إنه يا سيدى القارئ ثمن الخطيئة الذى دفعه المسيح بدمه وأكمله بولس بآلامه ، ويكمل النداء ودرب العطاء كل إنسان مخلص متفان لا يبالى بالألم أو بالموت، لأنه يملك فى أعماقه رؤية للحق والخير والجمال تمدّه بطاقة أقوى بكثير من طاقة الألم والفناء ...

حذار ثم حذار أن تظن أن الإنسان يستطيع أن يستوعب "الله" وأن الإيمان بالله أمر سهل وأن الحياة الروحية لا تحتاج إلى جهاد النفس، والسيطرة على الغرائز والشهوات. وما أبسط القول "الله

واحـد" ... لكن قل لى بربك هل هذا الواحـد "شـخص" ؟؟ أم هذا الواحد "مجهول" ؟ أم هذا الواحد بلا حياة فى أعماقه وبلا نور وبلا حب ؟؟ قل لى بربك ما معنى الله "نور السموات والأرض" كما كتب داود النبى ؟ هل الله نور يتدفّق ، أم نور لا ينير ؟ أم نور غير واضح ؟ وقل لى بربك ما معنى الله حياة ؟ أية حياة ؟ حياة كما يفهمها العقل بمعنى أنها ثراء وعطاء وجمال ، أم حياة بمعنى وثنى أى أنانية وتسلط وغموض ؟؟

لا سيدى القارئ ، نحن المسيحيين لسنا مشركين بالله ، لسنا عباد أصنام نعبد ثلاثة ، بل يا سيدى القارئ نحن موحدون ، شئت أن تفهم أو لم تشأ ، ولكننا بنعمة المسيح ، اكتشفنا أن هذه الوحدانية غنية متدفّقة فيها حياة وفيها حركة وفيها نور وفيها حب ، وحدانية الإنجيل ليست وحدانية الجهل والسلبية والغموض بل هى وحدانية الوحى الحقيقى الذى كشف لنا بالمسيح ، إنها وحدانية لا نهائية ، غنية بالوجود الإلهى "الآب" ، غنية بالعقل الإلهى "الابن" ، غنية بالحب الإلهى "الروح القدس" ، وهذا موضوع مقالنا هذا ...

الروح القدس

أولاً :

كلمة الروح تعنى تلقائياً ما ليس مادياً ، كما نقول مثلاً العقل والفكر ليس هما بالمادة والحواس ، الله كما يدلنا العقل ، وكما يدلنا الكتاب المقدس ، هو الله ، هو الروح ليس به مادة أو حواس مادية ، لأن المادة محدودة فى الزمان والمكان ، وكلمة القدوس ، أو بلفظ أبسط القدس هو قمة الحق والخير والجمال ، الشئ "المقدس" هو الشئ الذى له احترام خاص واستعمال خاص و "الشريعة

المقدسة" تعنى قانوناً يخضع له البشرخضوعاً تاماً لما يحيط به من معان سامية ...

وقد أُعلن فى العهد القديم على فم إشعيا النبى (٦:٣) إن الله قدوس ، قدوس ، قدوس ، هذه تسبحة الشاروبيم للجالس على العرش، وبالطبع لم يعلن الشاروبيم أنهم يسبحون ثلاثة بل يسبّحون الله الواحد الأحد ، هذه ملاحظة عابرة لمن يظن أننا نعبد ثلاثة ، فى كل الكتاب المقدس تسبيح لله الواحد ، وبخور يُرفع أمام عرش الإله الواحد ، والتسابيح والتماجيد كما نردّد : قدوس قدوس قدوس ، لله الأحد فى أقانيمه الثلاثة، أقنوم الوجود ، أقنوم العقل ، أقنوم الحب ...

والتكرار فى اللغة العبرية ، كما فى اللغة العربية ، تأكيد وإصرار ورمز للقمّة والكمال ، وفى تاريخ البشرية نجد أن القديسين والأولياء الصالحين والشهداء الذين بذلوا حياتهم دفاعاً عن قيمهم وآثروا الأمانة للقيم على الحياة فكرّستهم الشعوب أملاً مستقراً فى الوجدان، وأحاطتهم بهالة من القدسية ، فكأن "القداسة" دعوة خاصة للإنسان كما عبّر عنها بولس (غلا١:١٥). فقد دعاه الله وهو فى أحشاء أمه ، والقداسة عند الإنسان هى تقرّب أكثر إلى الله وتشبه أعمق بجماله ، فالقدس أو القدوس هو الكمال، وبالتالى الروح القدوس هو "الروح الكامل" .

الله الكمال المطلق

يقول القديس غريغوريوس النيسى « اللاهوت فى الله، هو الكمال ، والكمال ليس فيه نقص ، والقداسة هى الكمال، والقداسة هى روح الله ... » .

وقل لى بربك هل الله الواحد الأحد الخالق القدير ، بلا قلب وبلا حب ؟؟ بل لنمضى إلى أكثر من ذلك ونقول أيمكن أن تكون القداسة بلا محبة أى خالية من عاطفة الحب ؟ وهل يمكن أن يكون الله "قدوس" بغير حب إلهى ؟؟

يقول الإنجيل إن الآب يحب الابن (يو١٥:٩) والابن يحب الآب ، وهذا الحب قائم قبل إنشاء الوجود (يو١٧:٢٣و٢٤) .

والحب الإلهى حب أبدى ، من طبيعة الله ومن خصائص اللاهوت، قائم فى ذات الله ، وفى كلمة الله ، وبمعنى أكثر سهولة وتبسيطاً ، إن حب الله هو إلهى ، وحب البشر بشرى ، وحب الحيوان حيوانى، وهنا نقف لحظة لنفهم أمراً نحس به ، نعيشه ، ننمّيه ، نكسبه أو نخسره، ولكن لا يمكن أن نحدّده أو نلمسه أو يقع تحت الحواس . إنه "الحب" ، أين يوجد الحب فى كيان الإنسان ؟؟ أفى رأسه ، أم فى أنفاسه ، إنه يوجد فى ذلك كله ، فى كيان الإنسان كله ، إننا نعيشه ونشعر أحيانا بنموّه ، بقوّته ، وأحياناً بضعفه ، إنه فى أعماقنا ، وفى وجودنا كله ...

وقل معى ، فى تواضعٍ حقيقى أمام سرّ الله الواحد العظيم إن الله الخالق ، الجميل ، الفنان ، المهيمن ، الرائع فى كل أعماله الله هو الحب ، وهذا الحب الإلهى لا ينفصل عن الله ، بل هو فى الله ومن الله وإلى الله .

قلنا سابقاً إن الله "الواحد" هو آب بمعنى الذات، أو الوجود أو التدفّق لأنه متدفّق ، منبثِق (بكسر الثاء) وقلنا إن الله الواحد هو ابن لأنه مولود من ذات الآب ، فى ذات الآب ، فالله الموجود متدفق في ذاته وفي جوهره وفي حياته الإلهية، فليس فى الله التعدّدية الحسابية البشرية ، وليس فى الله الروح البسيط

(تركيب أو تعقيد) ، وليس فى الله وهو الكمال المطلق أول، أو ثانى، أو ثالث ، إنه الله الواحد الأحد ... وجود متدفّق نسميه الابن وحب متدفّق نسميه الروح القدس. فالله الموجود متدفّق في ذاته وفي جوهره وفي حياته الإلهية .

نقول عن الروح القدس إنه طاقة "اسْتَخْدِمُ التعبير البشرى" الحب فى الله الواحد . إن الحب فى أعماق الله هو الطاقة العظمى ، وخذ كلمة الحب هنا بمعناها الراقى السامى المنطلق على رحاب الوجود والكون كله ... والحب فى الله هو الروح القدس ، روح الجمال ، روح النقاء ، روح العطاء والتقديس ...

الله الواحد ، ذات ، أو وجود سميناه الآب .

الله الواحد ، عقل وكلمة وفكر سميناه الابن .

الله الواحد ، حب وقداسة وجمال سميناه الروح القدس .

الحب فى أعماق الله ، حى ، متدفّق ، متحرك ، قوة عظيمة ، ولكنه على مستوى البشر ، طاقة لا تنفصل عن كيان الإنسان ... والحب فى الله ، حى ، متدفّق ، متحرّك، قوة عظيمة ، ولكنه فى طبيعة الله ، أبدى ، إنه أقنوم فى الله ، ليس صفة كباقى الصفات التى نقولها عن الخالق ، مثلاً : الله المهندس ، الجميل ، فهذه وأمثالها صفات للذات الإلهية ...

أما الوجود ... والعقل والحب ، فهذه ليست صفات ، بل هى الكيان الإلهى اللامتناهى الأبدى السرمدى ، بقدر تعبير لغاتنا البشرية المحدودة .

الله الواحد إذن ، ببساطة بشرية هو أقانيم أو هو طاقات إلهية : طاقة الوجود أو الذات ، طاقة العقل أو الكلمة ، طاقة الحب أو

القداسة ، هذا هو ثالوثنا ، وإن كان فى الإنسان طاقات ولكنها تظل بشرية محدودة لأنها مخلوقة فى كيان الإنسان ، ففى الإنسان طاقة الوجود أو الذات طاقة محدودة ، وطاقة العقل محدودة أيضاً ، وطاقة الحب محدودة كذلك ، هذا مجرد تشبيه يقرب الفكرة إلى عقولنا المحدودة، تشبيه نطبقه علي الله مع الفارق العظيم بين الخالق والمخلوق ، فالله الواحد طاقات إلهية، أبدية ، من جوهره ، من طبيعته ، واحترس من القول بأن الله هو أيضاً جميل ، فنان ، مهيمن ، رحيم ، كبير ، ... الخ .

نقول : احترس فصفات الله غير ذاته وكيانه الإلهى ، وقد قامت قضايا فلسفية ولاهوتية حول هذا الموضوع ، ناقشها أهل الفلسفة منذ سقراط وأفلاطون وأرسطو ثم القديس توما ثم فلاسفة الغرب وحتى فلاسفة القرن العشرين مع كانت وبرجسون واحتدم نقاش مرير وصراع فكرى ومذهبى حول : هل صفات الله هى ذاته ، أم صفات الله غير ذاته ...

ولكن اللاهوت المسيحى منذ فجره مع الآباء الرسوليين ومع علماء الفقه المسيحى مثل أوريجان وأغسطينوس، وحتى عصر توما الأكوينى ، كلهم يقولون بأن الله الواحد الأحد ، له الكيان الإلهى اللامحدود اللانهائى وهذا الكيان ثالوث ، وأما صفات الله فليست من ذات الله ، كما أن تعبيرنا البشرى عاجز كعجز إدراكنا البشرى عن تفهم التمايز بين الذات والصفات، لكن بصورة بشرية قاصرة نقول إن إنساناً كريم ، إن فلاناً حنون ، إن فلاناً صادق ، فالكرم هنا أو الحنان والصدق صفات الذات، ولكنها ليست وجوداً فى الذات .

رموز الروح القدس

١- "النفخ الإلهى" ، والكتاب المقدس إذ يستعمل هذا التعبير إنما يقرّب إلى عقولنا صورة عمل روح الله ، فأى شئ أهم فى كيان الإنسان من التنفّس، وأى علاقة أوضح للحياة والوجود فى كيانه من أنفاسه الصادرة من أعماقه ، ولذلك عبرّ الكتاب عن عمل روح الله "بالنفخ" .

أراد المسيح أن يملأ روح التلاميذ بالروح القدس فنفخ فيهم (يو٢٠:٢٢). إنه الروح الذى ينزل على الرسل يوم العنصرة (أع٢:٢) ويقول إشعياء (٤٠:٧) نفخة الله هبت علينا ، ويقول أيوب البار (٢٧:٣) مادامت نسمتي فيّ وروح الله فى أنفى ، ويقول أيضاً إشعياء (٥٩:١٩) كنهر تدفعه نفخة الله .

ومادمنا نعرف أن الله "روح" ليس فيه مادةٌ أو جسد ، فتعبير النفخ يعنى عمل روح الله فى الأشياء ، والوجود ، والزمن والإنسان ، وما أروع هذه الآية التى نقرأها فى سفر التكوين (١:١). كانت الأرض خربة خالية وعلى وجه الغمر ظلام ، وروح الله يرفّ على وجه المياه. ثم تكمل الصورة بقوله (٢:٧) ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار الإنسان نفساً حيّة ...

٢ - "النار" ترمز فى الكتاب المقدس إلى روح الله ، والقلب عندما يشتعل بالأحاسيس يعنى أن هناك عاطفة جيأشة أو انفعالاً قوياً أو تأثيراً شديداً ، هكذا عبر تلميذا عمواس (لو٢٤:٣٢) ، والله يقول عن ذاته "نار آكلة" (تث٤:٢٤) ، (عب١٢:٢٩). والنار تتوهّج فوق الجبل عند نزول الوصايا (خر٢٤:١٧) ، والمسيح يشعل العالم ناراً بالحب (لو١٢:٤٩) .

ولا نستطيع أن نقول عن الروح القدس إنه ابن ، أو إنه مولود

من الآب ولادة أبدية أزلية ، وإنما يعلن المسيح : « إن كل ما هو للآب هو للابن » (يو١٥:٢٦). ويقول المسيح عن الروح القدس "روح الآب" (مت١٠:٢٠). ويشرحها بولس الرسول بإضافته : "روح الابن" (غلا٤:٦) ، وكما أن الله يرسل روحه فى العهد القديم على الأنبياء والملوك ، يرسل المسيح روحه - الروح ذاته - على تلاميذه ورسله (يو١٦:٧) .

-٨-

الـروح القــدس

ثانياً :

رُمــز فى الكتــاب المقـدس عن الـروح القـدس بالـريح أو النـار وواضح أن الـريح فـى العـصـور القـديمة لعب دوراً هامـاً فى كل مجـالات الحياة ، فى زمـن الحرب وفى زمن السلام فى البحـر أو البـر أو الفضـاء ، بل إن للريّح لغـة كمـا توهم الفنان والشاعر والساحر .

وكذا النار ، فـهى أسـاس الحيـاة القديمة كلها ، بل وقل أسـاس الحيـاة المعاصرة أيضاً ، فـالنـار هى الطاقـة والمحرك ، هى القـوة الدافعة ، ولذلك وُجد من عبد النار "المجوس" فى تاريخ الشعوب كما كان للنار آلهـة وللريح آلهـة تقدم لها الذبائح. أقول هذا لكى أشرح الرمز ومعناه فى الكتاب المقدس ولك ان تقلّب صفحات العهدين القديم والجديد لترى كم كان للنار أهميـة خاصة، وكم كان للريح دور واضح ، ولذلك رُمـز بهمـا لروح الله المحرّك والمقدِّس (بكسر الدال) .

نتقدّم خطوة ونقول : إن الله الحياة"الآب" والله الفكر "الابن" والله الحب "الروح القدس" ليست هذه صفات ، بل تلك مكوّنات الذات الإلهية، كما توصل إليها عقلنا تحت نور الإنجيل، وندرك

تماماً عجز التعبير البشرى وضعف اللغات كلها عن استيعاب الحق الأعظم ، وإنما لغتنا وسيلة نعبر بها عن إيماننا وعن الوحى .

الروح القدس إذن هو كيان الحب فى الذات الإلهية وحاشا أن يكون الحب فى الطبيعة الإلهية عاطفة، أو إحساساً أو نزوات تخضع كما فى الإنسان لمؤثّرات ، وإنما كيان الحب فى الله من جوهره تبارك وتعالى ، من ذاته ، من طبيعته الإلهية الأبدية السرمدية ، ولذلك نقول فى قانون الإيمان « نؤمن بالروح القدس ، الرب المحيى ». احترس من فكرة بشرية تقول إن الروح شئ والجسد شئ ، حاشا لله ، فروح الله لا ينفصل عن ذات الله أو عن فكر الله ، إنما هو انبثاق أو تدفّق إلهى ذاتى ... إننا نعبر عن هذا الانبثاق الإلهى بكلمات بشرية عبر بها لوقا الإنجيلى حين قال : « وعاد المسيح إلى الجليل بالروح » (لو٤:١٤) ، الروح القدس هو الذى يظلل العذراء فتمتلئ أحشاؤها منه (لو١:٣٥) وهو الذى يجدد الرسل يوم العنصرة (أع١:٨). وسأعطى مثلاً بشرياً يقرّب لنا هذه الحقيقة لو شبهّنا الله وهو الذى لا شبه له ، بنهرٍ متدفّقٍ نقول: إن الله الآب هو النبع، والله الابن هو النهر، والله الروح هو التيار .

لا يمكن لأى عقل أن يتقبل فكرة الله دون أن يقول بأن الله هو الحب ، والحب لا ينفى وجود القوة ، بل على العكس تماماً ، الحب فى جوهره قوة ، والقوة فى جوهرها السامى "حب"، ولذلك عبّر الكتاب المقدس عن الروح القدس تارة بتعبير الحب والوداعة، وتارة بتعبير القوة والعقاب (تك١:٨، خر٣:٢ ، خر١٩:١٦ ، خر٢٤:١٧ ، اع٢:٢-٣ ، تك٣:٨). وما أجمل تعبير القديس يوحنا الصليبى عن الروح القدس بقوله : «شعلة الحب الحياة الدائمة ». وأود أن أختم هذا الفصل بنصوص رائعة من آباء الكنيسة عن الروح القدس .

يقول القديس أنطونيوس : « الذى يطلب من الرب باجتهاد

ومحبة بحسب وصاياه وتعاليمه فإن الرب يكون معه ويعطيه نعمة الروح القدس والذين استحقوا هذه النعمة سعوا حسب الوصيّة بكل قوتهم ونياتهم فقبلوا روح البنوة، وتعلموا من الروح القدس » .

ويقول القديس أثناسيوس : « حينما حل الكلمة على الأنبياء تنبأوا بالروح ، وبكل تأكيد فإن الكلمة قبل أن يصير إنساناً كان يعطى الروح القدس للقديسين باعتبارهم كخاصته ، كذلك لما صار إنساناً فإنه يقدس الجميع بالروح القدس، ويقول لتلاميذه :"اقبلوا الروح القدس"، وهل الروح القدس "واحد" والباراقليط آخر ، حيث يكون الباراقليط هو بعد الروح القدس؟ وهل الباراقليط لم يُذكر فى العهد القديم، حاشا ، فكما أن "الكلمة" و "الابن" واحد والرب نفسه قال هكذا : « والباراقليط الذى هو الروح القدس الذى سيرسله الآب باسمى» (يو١٤:٢٦) وهكذا يتكلم الرب عن الواحد نفسه .

ويقول القديس كيرلس الكبير (٤٤٤م) : « لما اتحد اللوغس "الكلمة" بالناسوت الذى اتخذه لنفسه من القديسة العذراء فقد منحه روحه القدوس، وبذلك بدأت طبيعتنا البشرية تتقدّس من جديد فى شخص المسيح، وبالمثل يحدث لكل واحد منّا لما يتحد بالمسيح فهو ينال منه الروح القدس ويتقدس به » .

لقد كان الكلمة المتجسّد قدوساً بطبعه بحق جوهره الإلهى ولكنه بصفته إنساناً قدس ذاته من أجلنا كمن يكتسب القداسة ، وهكذا نال الروح القدس ليس من أجل ذاته هو، إذ أنه هو مُعطى الروح، بل من أجلنا نحن لكى يمنحه إلى طبيعتنا البشرية الكائنه فيه، ويجعل النعمة التى فارقتها تتأصل من جديد فيها .

ويقول القديس كيرلس الكبير : الروح القدس هو الرباط الذى يربط نفوسنا بالآب والابن .

« الروح القدس هو صورة الابن وهو حينما يطبع ذاته على أنفسنا فهو يعيد خلقتنا لتكون على صورة الابن الذى هو بالتالى صورة الآب » .

« الروح القدس هو القوة التقديسية فى الثالوث المقدس بحيث أن التقديس أو القداسة هى له صفة جوهرية كما الأبوة للآب والبنوّة للابن » .

إن التجديد الذى نحصل عليه هو فى الحقيقة من عمل الثالوث حتى وعندما ننسب لكل أقنوم عملاً مما يحدث لنا أو للخليقة . ولكن علينا أن نؤمن بالرغم من ذلك أن كل شئ هو من : الآب بالابن فى الروح القدس، سواء كان خلقة ما، أو دعوة للتلمذة، أو هبة عدم الموت، أو تقديس الحياة أو كل ما يهبنا الله إياه من الصالحات. فالروح القدس يرسله الآب للقديسين بواسطة الابن ، كل شئ إنما يستعاد مجدَّداً للآب بالابن فى الروح القدس ، المسيح بواسطة نفسه يحلّ بواسطة الروح القدس فى من يعرفه، ويربطه بواسطة نفسه بالقرابة الروحية مع الله الآب .

ملاحظة ختامية

رغبت أن أستشهد بأقوال آباء الاسكندرية، لكى أوضح أن الاختلاف فى أمور كثيرة، الاختلاف بين الشرق والغرب اختلاف فلسفى لغوى وأن الإيمانين واحد ...

وما أجمل هذا النص الذى أقتطفه من العهد القديم رمزاً إلى

الروح القدس بالحكمة، والذى يقرأ فى الساعة الحادية عشرة من ليلة الأربعاء من أسبوع الآلام ، نص يتدفّق حياة وحركة وموسيقى، فهو كأدب فوق مستوى الآداب والفنون علي عهده ، وهو كفكر ، لا يمكن إلا أن يكون من وحى الله وإلهامه ، وكصورة وتعبير وتشبيه ، يحرك كل نوازع الخير والسموّ فى وجدان الإنسان ، إن قراءة متأنية لهذا النص تخلق فى القارئ، ولو للّحظات قصار إنساناً ، متصوّفاً ، متسامياً ، وهذا هو النص : (حكمة٧:٢٤-٣٠)

« إن الحكمة – الروح القدس – أسرع حركة من كل متحرّك فهى تبلغ وتأتى إلى الكل من أجل طهارتها، فإنها لهيب قوّة الله، وفيض من المجد المقدس مجد ضابط الكل ، فلذلك لا يقدر ان يقرّبها شئ دنس لأنها ضياء النور الأزلى، ومرآة أعمال الله النقيّة، وصورة صلاحه . تقدر على كل شئ وهى واحدة وتجدّد كل شئ وهى ثابتة فى ذاتها، وفى كل جيل تحل فى النفوس الطاهرة ، تجعلها شريكة الله وتصيرها أنبياء لأن الله لا يحب أحد إلا من يساكن الحكمة ، لأنها أبهى من الشمس وأسمى من كل مركز للنجوم، وإذا قيست بالنور تقدمت عليه لأن النور يعقبه الليل وأما الحكمة فلا يقوى عليها الظلام ... ».

الـروح القـدس

ثالثاً :

في سطور سابقة أكدنا على حقيقة لا يختلف عليها اثنان وهي أن الله واحد ، أحد ، لا شريك له ، وأكدنا أن الذات الإلهي - تبارك وتعالى - ذاتي حيّ ، أبدي ، وأن الثالوث - حاشا لله - أن يكون إضافة إلى الذات الإلهي ، وهل هذا يعقل ؟

نحن لا نضيف إلى الله "شيئاً" أو نضيف شخصاً ، وإنما إيماناً كما تسلّمه الرسل من المسيح المتجسّد، وكما تسلّمناه وكما سنسلمه إلى أبنائنا ، إيمان رائع حقيقي ، كشفه لنا المسيح وعلمنا أن الثالوث هو "في الذات الإلهي الواحد". فالله واحد ، هو هو الحي المتدفّق حياة إلهية في ذاته ، هو القدوس المتدفّق قداسة في ذاته ، هو الحب المتدفّق حباً في ذاته ، ومن هنا علمنا الوحي الإنجيلي أن الله أب لأنه متدفّق ولا يزيد ولا ينقص، هو الله ، وأن التدفّق سميناه الابن في الذات الإلهي لا يزيد ولا ينقص في ذات الله ، وأن بين الآب وبين تدفّقه الذاتي حب إلهي سميناه الروح القدس في الذات الإلهي الواحد لا يزيد ولا ينقص في الله الواحد .

الذات الإلهي "تعبيرات بشرية تشرح حقائق إلهية" هو الآب ، والذات الإلهي كله هو الابن ، لا تمايز بينهما إلا في هذا التدفّق الحيّ الإلهي « فمن رأى الابن رأى الآب » (يو١٤) وكل ما هو للآب

هو للابن ، كالشمس ونورها ، والذى كشف لنا هذا التدفّق الإلهى هو سر التجسّد، فقد جاء النور من النور ، وأخذ النور صورة الإنسان وطبيعته كما يأخذ شعاع الشمس صورة الأشياء التى ينفذ منها (يتخذ شعاع الشمس صورة الأشياء التى ينفذ منها) ، ولولا تجسّد المسيح الكلمة لما كنا عرفنا سر الذات الإلهى ، ولما استطاع العقل البشرى أن يدخل إلى أعتاب أسرار الله ، ولما استطاعت كلماتى أو كلمات غيرى أن تنطق فى عجز بشرى، وفى تواضع حقيقى عن الله الواحد مثلّث الأقانيم .

جوهر الآب هو جوهر الابن هو جوهر الروح القدس ، قد يسأل سائل : هل حدث هذا التدفّق في الزمن ؟ أو بأسلوب أكثر بساطة هل الآب يسبق الابن ، وهل الآب والابن يسبقان الروح القدس ؟ والإجابة أكثر بساطة وسهولة ، نقول : حاشا لله أن يكون فيه الزمن وحاشا لله أن يكون فيه أول وآخر ، وحاشا لله أن يكون فى ذاته طبقات أو درجات، إنما فى الله وحدة وحدانية وأبدية مطلقة ولاهوت واحد وجوهر واحد .

قد يذكرنى هذا بسؤال كنا نطلقه ونحن أطفال على أساتذة التعليم المسيحى ، كنا نسألهم : متى وُجد الله ؟ نقول : إن الله لم يوجد ، أعنى أنه لم تكن هناك فترة لم يكن فيها الله موجوداً ، فالله هو الوجود ، الله هو الحياة ، الله هو الكمال ، الله هو القداسة ، والزمن ومقاييسه أمر مادى من صنع الله ومن تنظيمات العقل البشرى، والله غير محدود فالمكان أمر مادى من صنع الله ومن علم جغرافيا البشر ، الله هو الأبدية واللانهائية فى كل شئ .

انبثاق الروح القدس :

الإنجيل ، مع سائر كتب العهد الجديد ، يعطى لنا نوراً حول هذه

الحقيقة التى اختلف حولها لاهوتيو الشرق والغرب، وقام جدال عنيف - أراه اليوم -جدلاً لا يستحق الضجّة من حوله ، فالروح القدس هو روح الآب (مت١٠:٢٠) والروح القدس هو روح الابن (غلا٤:٦) والجوهر واحد لله وللأقانيم الثلاثة .

ولنا فى نص بولس الرسول نور يستحق أن نخشع أمامه لحظة وأن نتأمل قليلاً عظمة السر الإلهى ، فلننصت إلى قول بولس الرسول فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس « ... الذى ما رأته عين ولا سمعت به أذن ولا خطر على قلب بشرما أعده الله للذين يحبونه » (٢:٩) ، ولكن الله كشف لنا بالروح لأن الروح يفحص كل شئ حتى أعماق الله، فمن هو الذى يعرف ما فى الإنسان غير الروح التى فى الإنسان ؟ وكذلك ما من أحد يعرف ما فى الله غير روح الله، وما نلنا نحن روح هذا العالم بل نلنا الروح الذى أرسله الله لنعرف ما منحنا من مواهب ، ونحن لا نتكلم بكلام تعلمه الحكمة البشرية بل بكلام يعلمه الروح القدس ، فنشرح الحقائق الروحانية بعبارات روحانية، فالإنسان البشرى لا يقبل ما هو من روح الله لأنه يعتبره حماقة، ولا يقدر أن يفهمه أو يحكم فيه إلا بالروح ، وإما الإنسان الروحانى فيحكم فى كل شئ ولا يحكم فيه أحد ، فالكتاب يقول «من هو الذى يعرف فكر الرب ليرشده ، وأما نحن فلنا فكر المسيح » .

فالروح القدس هو جوهر الحب القائم بين الآب والابن ، منبثق من الذات الإلهى - احترس من فهم ذلك بالزمن والأسبقية والأقدمية أو الترتيب المادى الزمنى قائم فى الآب والابن ، مُرسل من الآب والابن (يو١٦:١٣) هو روح الحق (يو١٥:٢٦). فالروح القدس هو وحدة الآب والابن وهو الشاهد الأمين .

وأعتقد أن عبارة الروح القدس المنبثق أو المتدفّق من الذات

الإلهى وفى الذات الإلهى المُرسل من الآب والابن ، هذه العبارة ترضى الشرق والغرب ، ولا تختلف عن التعبيرين الكاثوليكى والأرثوزكسي .

قد يختلط على البعض ، فيظن أن الروح القدس أقل أهمية من الآب والابن ، أو أصغر درجة ، وبالطبع هذا تفكير بشرى محض ، مادى محض ، ولذا ينبغى أن نكرّر ونقول إن الله واحد ليس فيه درجات ، وإنما الله الواحد فيه تدفّق وحياة. هذا هو ثالوثنا .

تدفّق من الذات الإلهى "الآب" وفى الذات الإلهى تدفّق عقلى سميّناه الابن أو الكلمة ، وتدفّق حب سميناه الروح القدس .

ونحن أبداً لا نؤمن بالتعدّدية أو الطبقية فى الله الواحد، أبداً لا نؤمن بالشرك فلم نضف إلى الله ولداً أو روحاً ، ولا نؤمن بالحلولية أى بأن الله حلّ فى شخص اسمه المسيح ، أبداً أبداً ، نحن نؤمن بأن الله العظيم القدوس الأبدى الحى القيوم هو الله الغنى المتدفّق الموجود ، نؤمن أن الله الواحد فى ذاته له فكر من طبيعته الإلهية وجوهره الإلهى ، وفكر الله الأبدى لا يتعدّد ولا يتغير ولا يتناقض، ولا يزداد، ولا ينتقص ولا يتطور، ولا يثرى، ولا يفقر ، حاشا لله أن نلصق به صفات البشر ، وإنما هو الله الواحد والفكر الواحد "المسيح من جوهره وطبيعته" والحب الواحد فى ذاته "هو الروح القدس" .

كل ما يعمله الآب يعمله الابن (يو١٤) ويعمله الروح القدس ، وإنما نحن البشر ننسب الأعمال إلى الأقانيم لا لنفصل بينها ولكننا نقول بقدر عقولنا إن الله بصفته الذات الإلهى مصدر الانبثاق والتدفّق والعطاء هو الآب مصدر الخلق والإبداع ، والمسيح الكلمة المتجسد "أو الابن ليس بالتناسل" المولود من الآب

فى ذات الآب، هو الابن الفادى والمخلص الذى أخذ طبيعتنا وصار إنساناً مثلنا يأكل ويشرب ويتألم ، فاللاهوت هنا لا يأكل ولا يشرب ولا يتألم ولكنها الطبيعة البشرية ، وعظمة "إنسانية المسيح" هو اتحادها باللاهوت اتحاداً بلا اختلاط او تغيير أو تشويش أو انفصال ، فكل ما صدرعن إنسانية المسيح اكتسب سموّه وقداسته من هذه الوحدة، ولا نقول إن الآب أكل أو شرب أو تألّم ، فهذه أمور اختص بها ناسوت المسيح ، وعندما نقول إن الروح القدس هو الروح المعزّى (يو١٤:١٦) أو نقول مع الكتاب « لا تحزن الروح الذى فينا » (أف٤:٣٠) أو « لانكذب على الروح » (أع٥:٣) أو « إن الروح هو الذى يلهم أنبياء العهد القديم » (١كو١٢:٣) ، كل هذه التعبيرات البشرية تحاول بنور الإنجيل أن تكتشف ثراء الذات الإلهى، لا أن تفصل بين أقانيمها أو أشخاصها أو تدفّقها ، وإن عظمة الإيمان المسيحى وسموه هو أنه تخطى عتبة البدائية فى الإيمان ، وقد انتهينا من ترديد كلمة "الله المجهول الذى ليس كمثله شئ" .

الله واحد ، لا ننكر وأيم الحق هذا التعبير الذى وصل اليه بدون وحى عقل إخناتون وعقل سقرط أو أفلاطون أو أرسطو .

الإيمان المسيحى عبر بالإنجيل هذه المرحلة العقلانية من الإيمان ووصل إلى الغوص فى الذات الإلهى الواحد وكشف لنا المسيح صورة الله ، ضياء جوهره ، الابن الكائن فى حضن الآب كشف لنا عن : من هو الله ، اوضح لنا ان الله واحد أحد، والواحد ثالوث فى ذاته ، إنها مرحلة الوحى الإلهى . كأن الإنجيل قد انتقل من مرحلة العهد القديم ووحدانية موسى النبي إلى عصر الكشف عن وحدانية الله .

لنقرأ هذا النص من (يو١٧) « هذه هى الحياة الأبدية أن

يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك - والذى أرسلته يسوع المسيح -
أنا قد مجدتك على الأرض وأتممت العمل الذى أعطيتنى لأعمله
والآن مجدنى أنت يا أبت عندك بالمجد الذى كان لى عندك من قبل
كون العالم .. وقد أعلنت أسمك للناس الذين أعطيتهم لى من
العالم، هم كانوا لك وأنت أعطيتهم لى، وقد حفظوا كلامك ، .. وهم
قبلوا وعلموا حقاً إنى منك خرجت وآمنوا أنك أنت أرسلتنى » .

ملاحظات هامة

بسطنا ملامح أعظم العقائد المسيحية ، الكشف الإنجيلى، الذى أعلنه المسيح – له المجد – والذى آمن به منذ فجر المسيحية الرسل والآباء ، وعرضنا نظرية المسيحية فى عقيدة الثالوث .

توخينا البساطة فى العرض، وحاولنا بقدر الإمكان انتقاء الكلمات ، فأين قدرة الإنسان وطاقة عقلة المحدود وضعف لغاته ؟ أين ذلك من الغوص فى الذات الإلهى!!

إن عظمة الله الخالق الحكيم المهيمن لا يمكن سبر غورها أو الإحاطة بها، غير أن المسيح "الكلمة المتجسّد" أخذ بعقل الإنسان وأنار له طريق الفهم ليدرك ملامح الذات الإلهى ، إن المسيحية هى سرّ التجسّد الإلهى وسرّ الفداء ، ولا يمكن فهم التجسّد والفداء إلا بفهم عظم محبة الله للإنسان ، فالمسيحية هى أعظم اكتشاف يفوق كل ما تقدم وما تأخر من أسرار الطبيعة والعلوم والفضاء ، إنها اكتشاف سر الخلق ، وسر الألم ، وسر القيامة ، وما وراء القيامة .

إن تجسد المسيح هو دخول "أبدية الله" فى زمان البشرية، أو هو دخول "البشرية الزمنية" فى الأبدية الإلهية، وهذا هو اتحاد اللاهوت بالناسوت ، فالتنازل الإلهى لم يكن عن استحقاق من البشر ، ولم يكن يغنى عنه نقاء نبى وسموّ رسول ، فلو تجمعت كل

قداسة أنبياء العهد القديم ، ولو تجمّعت كل الذبائح والصلوات منذ آدم حتى مجئ المسيح ، ولو ارتفعت التسابيح وكل ألوان البخور ، ذلك كله لا يغنى عن التنازل الإلهى وعن سرّ التجسّد ، ولما كان يساوى لحظة من الزمن أو طرفة عين أمام "تجسّد الكلمة الإلهى" .

المسيحية هى سر حب الله للبشر .

والمسيحية هى نقطة انطلاق حب البشر المتّحدين بالمسيح نحو الله .

وانتبه يا سيدى القارئ ، فالإنسان المتحضر هو الإنسان المُحب . المحبة هى الحضارة .

ولك أن تنظر فى كل تاريخ البشرية ، فحيث وُجدت المحبة للوطن وُجدت الحضارة ، وحيث وُجدت المحبة للأسرة وقيمها وجدت الحضارة ، وحيث وُجدت المحبة بين الأفراد وجُدت الحضارة ، وحيث وُجدت المحبة للطبيعة وللوجود وللأشياء وللحيوان وللطير وُجدت الحضارة ، لا شئ يُبنى ويُعمر ويتقدم إلا اذا كان منطلقاً من حب ومن محبة .

لذلك فالمسيحية هى المسيح ، والمسيح هو حب الله للبشر ، وتبادل الإنسان هذا الحب مع خالقه هو الحضارة وهو التقدم ..

ملاحظة أولى :

لفظ الثالوث ، لم يأت به المسيح (وإنما جاءت هذه الآية فى رسالة يوحنا الأولى ٥:٧ لأن الشهود فى السماء ثلاثه ألآب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة واحد) ، لم ينطقه ، لقد كشف لنا المسيح فى الإنجيل عن "الذات الإلهى" الواحد ، الأحد ، وأوضح أن

الله الخالق هو أب، وهو متدفّق فى ذاته ، كبنوة ذاتية، ومتدفّق فى ذاته روح حب ، لغة الكتاب المقدس ومنه الإنجيل لغة بسيطة محسوسة يفهمها الخاصة والعامة .

يقول المسيح « أنا والآب واحد » (يو١٠:٣٠) ويقول بولس الرسول « الله واحد » (غلا٣:٢٠) .

وقد أرادت الكنيسة منذ أجيالها الأولى أن تعبر عن عقيدتها العظيمة فأعطت لفظ "ثالوث" فى الله الواحد ، ومن وقتها أُلقيت التهمة على المسيحيين بأنهم عباد أصنام، وبأنهم مشركون ، لأنهم يعبدون ثلاثة ، أستغفر الله !!

ومن هنا تبدأ جميع صلوات المسيحيين بالتعبير الذى أعطاه لنا المسيح «باسم الآب والابن والروح القدس » .

فما أبسط وما أسهل القول إن الله واحد وانتهينا ، وما أبسط القول وأيسره إذا قلنا إن الآب والابن والروح القدس صفات الله الواحد ، تماماً كالقدوس ، الرحيم ، القوى ، الجبار ، المتعالى كما ذكرت في العهد القديم .

نقول أبداً ، أبداً ، إن صفات الله موضوع، وذات الله موضوع آخر. شقى العلماء على مرّ التاريخ فى دراسة الموضوعين، وشقى المتأملون للذات الإلهى ، ووصل الجميع فى مختلف الأديان إلى أن صفات الله موضوع يتميز عن الذات الإلهى ، وثالوث المسيحية ليس ثالوث صفات بل هو "ثالوث ذاتى" ، إنه انبثاق ذاتى ، إنه تدفّق ذاتى ، إنه الله الواحد المتميز فى ذاته بتدفّقه الإلهى، ولذلك هذه "الواو" التى تربط الثلاثة أقانيم هامة جداً لشرح العقيدة المسيحية القائلة بأن الذات الإلهى الواحد ثالوث فى حياته الإلهية وليس صفاته .

وآخر يصيح متسائلاً مع نسطور الذي حرمته الكنيسة: هل الله يولد طفلا ؟ هل الله يأكل ويشرب ويتعب وينام ويتألم ؟ هل الله يموت ؟؟ نقول معه : حاشا لله ، الله لا يأكل ولا يموت ولكن المسيح الإنسان هو الذى أكل وشرب وتألم ومات . أما القول بأن الله صار إنساناً حباً بنا فلا ينقص الأمر شيئاً من عظمة الله ولا يحرج وحدانيته ولا يبخس الله حقه فى أن نعبده ، بل ذلك أمر يرفع من قيمة الإنسان ويسمو بالطبيعة البشرية .

ملاحظة ثانية :

يقول مجمع فلورنسا : " فى الذات الإلهى الواحد لا زمن ولا طبقة ولا علوّ ولا عمق ولا فوق ولا تحت ولا أول ولا آخر ، ولا يمكن أن نمايز بين الأقانيم إلا بأمر واحد على قدر عقولنا البشرية، وهذا الأمر هو أن الله الحياة والوجود نسميه الآب ، وأن الله المتدفّق فى ذاته نوراً ومعرفةً نسميّه الابن ، والله المتدفّق فى ذاته والمتدفّق فى نوره حباً نسميه الروح القدس " ... فهذه الروعة التى تسرى فى الكون والوجود والطبيعة ، هذا الخلق المتصل فى كل فجر ، وهذا الجمال المتدفّق فى كل أصيل ، وهذه الحياة التى تسرى فى كل الكائنات ، هذا كله من صنع الله "الثالوث" . ألم يقل المسيح « كل ما يفعله الآب الابن فاعله » (يو٥:١٧). « إن أحبنى أحد يحفظ كلامى ويحبه أبى وإليه نأتى وعنده نجعل مقامنا ، والكلام الذى تسمعونه ليس لى بل للآب الذى أرسلنى ... وأما المعزى الروح القدس الذى سيرسله الآب باسمى فهو يعلمكم » (يو١٤:٢٣) .

احترس يا سيدى القارئ ، الله واحد ، والثالوث لا يعنى أن عمل الله مجزأ ومقسّم ، فإرادة الله "الثالوث" واحدة ، وقصده واحد ،

وفكره واحد ، وحبه واحد ، وأعماله المتنوعة صادرة من وحدة الأحد القدوسّ المثلّث في ذاته .

ملاحظة ثالثة :

لماذا نقول إذاً إن التجسّد هو تجسد المسيح الكلمة الإلهية لا تجسّد الثالوث المقدس ؟

أقول مهلاً ، وليكن حديثنا في هدوء وعمق ، إن أى عمل يصدر من الله الآب، ومن الله الابن، ومن الله الروح القدس هو عمل الله الواحد المثلث في ذاته ، ليس هناك استقلالية ، ولكننا بعقلنا المحدود نميز في العمل ذاته لا في مصدره فنقول إن المسيح تجسد لأن أقنوم الكلمة الإلهى في الذات الإلهى الواحد هو الذى قدّم هذا التجسد لنا نحن البشر ، فنحن ننسبه إلى الكلمة الإلهى الذى أتمه لنا وأمام حواسنا وهو الذى اتحد بالإنسانية ، تماماً كما نقول إن الله الآب هو الخالق وضابط الكل ، ذلك ليس لأن الثالوث منقسم، كلُ له وظيفة – أعوذ بالله وأستغفره من ضعف لغتى – فالثالوث إله واحد ، ولكننا نقول هذا لكى نعطى لله المتدفّق في ذاته ، الوجود في ذاته صفة الأبوّة لأنه هو الذات المتدفّقة ، فلا يعنى ذلك أبداً أبداً أن الله خلق بجزء منه هو الأبوة ، أو أن الله تجسّد بجزء منه هو البنوّة ، أو أن الله قدس الحياة بجزء منه هو الروح القدس .

حاشا لله أن ينقسم أو يتجزأ أو ينفصل ، الله واحد روح بسيط بلا تركيب أو تعقيد ... نحن البشر ننسب الخلق للآب كمصدر للوجود ، وننسب التجسّد للابن كمصدر للنور والمعرفة ، وننسب القداسة للروح القدس كمصدر للحب والحكمة ، لكن الله الواحد هو

مصدر الخلق والتجسّد والقداسة والحكمة ، إنه الله ...

مع فارق التشبيه مع ما هو بشرى وبين ما هو إلهى ، ومع اعتذارنا العظيم إذ نقدم تشبيهات ملموسة محسوسة لنتقرب إلى الروح الأعظم وإلى ملامح الذات الإلهى ، نقول : ما الفرق في الإنسان بين فكره وعاطفته وإرادته ؟ أليست الثلاثة متميزة في "الذات الإنسانية" الواحدة ... أيمكن أن نقول إن فكرك يضاد عاطفتك وإرادتك تعاند عقلك ؟؟ نعم نستطيع ان نقول ذلك في الإنسان ، أما فى الله سبحانه وتعالى ، القدوس ، الحق ، الجمال ، الخير ، فلا تعارض ولا تناقض ولا تركيب ، إنه الله ، وهكذا فالله المثلّث فى ذاته الواحد ننسب نحن البشر أعماله لقوته الخالقة كآب ... لقوته العاقلة كابن ... لقوته المقدِّسة "بكسر الدال" كروح قدس...

وهو الله الذي يصنع كل شئ ... فتعبير إصبع الله ، أو قدرة الله ، أو وجه الله ، أو يد الله تعبيرات بشرية نسوقها لأننا بعد فى قيود المادة والزمن ، ومتى انطلقنا أحراراً لا سلطان للمادّة والزمن علينا أمكن أن نحقّق إيماننا ورجاءنا لا كمن ينظر فى مرآة أو فى صور ، وإنما كمن يعيش الإيمان والرجاء ...

ملاحظة رابعة :

{ قانون الإيمان كما حدده مجمع نيقيه عام ٣٢٥ }

نؤمن بإله واحد ،

أب ضابط الكل ،

خالق كل الأشياء مايُرى وما لا يُرى ،

وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد ،

المولود من الآب أى من جوهر الآب

إله من إله ،

نور من نور ، إله حق من إله حق ،

مولود غير مخلوق ، له وللآب جوهر واحد ،

به كان كل شئ ما فى السموات وما على الأرض ،

الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا

نزل من السماء وتجسّد وصار إنساناً

وتألّم وقام فى اليوم الثالث ،

وصعد إلى السموات وسيأتى ليدين الأحياء والأموات

{ ثم أضاف مجمع القسطنطينية عام ٣٨١ العبارات التالية}

نؤمن بالروح القدس الرب المالك المحيي المنبثق من الآب، الذى مع الآب والابن، ويُسجد له ويُمجد .

كلمة أخيرة

تجاسرت فى مخافة الله ، وحاولت أن أخوض فى عقيدة الثالوث . وصلاتى إلى "الله الثالوث المقدس" أن أشكره لأنه ساعدني في إخراجها في كتاب أضعه بين يدى القارئ ، لا أبغى إلا أن يشتغل عقل كل إنسان بالفكر ، فليس إنساناً من لا يفكر ، وليس إنساناً من تحجر عقله عند حدود معينة فآمن إيمان العجماوات ، وصدق العبيد ، وسار على الدرب القديم يخشى كل جديد، يخاف كل نقد وكل اجتهاد .

عقيدة الثالوث ليست إضافة إلى "عقيدة الله الواحد" بل هى شرح لها ، ودخول إلى أعتاب سر الخالق العظيم ، وعقيدة الثالوث ليس اختراعاً أو إبداعاً بشرياً ، بل هى كشف إلهى لو لم يكشفه المسيح - كلمة الله - لما أمكن للعقل البشرى أن يتخيّل مثل هذا الإيمان . وعقيدة الثالوث ليست تقليداً ورثته المسيحية عن ثالوث الهند ، وعن ثالوث إيزيس وأوزوريس وولدهما ، هذه كلها أديان قالت بثلاثة آلهة منفصلة متحاربة لها سمات البشر ورزائلهم ، ولهم شهواتهم وسقطاتهم .

ثالوث المسيحية هو قمّة التوحيد ، ليس توحيداً مجهولاً سهلاً فما أبسط أن نقول : الله واحد وكفى ، وما كان أغنانا عن الخوض

فى علم الفضاء وفى النزول على القمر ، وموت الرواد واحتراق الملايين ، ما كان أغنانا عن هذا الصراع المرير بين الإنسان وبين كل غامض مجهول ، لكن وألف لكن، أين نذهب بعقولنا ؟ ، النور الإلهى المتوهّج فى كياننا ، النفخة الالهة فى الوجود البشرى ، هذا العقل لا يشبع من السعى وراء الحقيقة ولا يكف عن التساؤل ، ولا يقف عند حدود ، إنه انطلاق إلهي فى أعماق الإنسان ، منذ أن كان يأكل ثمرة الشجر ويرتوى بماء النهر ويشعل النار بحجرين، يلبس أوراق الشجر، حتى وصل إلى حقائق الكمبيوتر ، والطاقة الشمسية. ترى لو تحجر العقل ... هل كانت البشر ية تخطو إلى الأمام ؟؟ تُرى لو اكتفى الإنسان بالكهرباء ... هل كان يستطيع أن يصل إلى علم الذرة ؟؟ هذا هو المجال العلمى والمادى .

وكذا قل عن خبرة الإنسان فى عالم الروح، فى سعيه للكشف عن خالقه، عن مصيره، وعما ما وراء الحياة ..

عبد الإنسان الريح والبحر والجبل والشمس، وقدمّ لها الذبائح...

عبد الحيوان والطير والحشرات، وقدمّ لها الذبائح ..

عبد الجسد فى عنفوانه، سجد للغرائز ..

عبد الملوك، القادة، الكهان، والسحرة ..

وتقدم بالخبرة الروحية إلى عبادة قوى غيبية ، عبد إله الخير وإله الشر ، إله النور والظلام ..

ثم تطوّر الأمر ووصل بعقله إلى عبادة "إله واحد" ..

كان ذلك قبل المسيح .. وقبل موسى النبي، وقبل الوحى .. بعقله، بجهده ، بسعيه وراء الحقيقة أمكن أن يصل الإنسان إلى هذا

"الكشف" ، غير أنه لا يمكن أن ننسى عين الله الساهرة على خليقته لم تتخل عن الإنسان ، فرحمته من جيل إلى جيل ، ونوره الإلهى يسطع فى قلوب كثيرة ، فقوّة العقل إنما تستمد حيويتها من هذا الإشعاع الإلهى. لك أن تقرأ ألوان الفكر اليونانى ، وألوان الحكمة المصرية ، وألوان الأدب العربى الجاهلى لكى تكتشف ارتقاء التوهّج البشرى والعون الإلهى للوصول إلى الحق ..وفى آخر المطاف جاء المسيح ليتوّج "وحدانية الله" بأسمى حقائقها ، والوحدانية "مثلثة الأقانيم" ، وحدانية الذات الإلهى "الآب والابن والروح القدس" ، ووحدانية الحياة ، النور ، الحب ، الله ،الأحد ... هذه حقيقة بديهية ، وهذا الواحد فيه حياة "أب" فيه نور "ابن" فيه حب "روح".

ملاحظة خامسة :

لا يمكن القول "الله أبدى" فالمعنى اللاهوتي لا يقبل هذا التعبير، بل القول "هو الله الأبدي" لأنه مصدر الزمن والوجود ، وأما معنى كلمة الأبدى ، فالله ليس له بداية أو نهاية ، وليس له قبل أو بعد ، ليس له ماضى أو حاضر أو مستقبل ، ليس له تغيير أو تبديل أو زيادة أو نقصان (يع١:١٧) . وقد عبر الخالق عن ذاته لموسى النبي «أنا هو الكائن » (خر٣:١٤) .

الله لم يره أحد قط ، والأبدى كيف يراه الإنسان الزمنى، وكيف تستوعبه الحواس المحدودة والعقل الناقص ، وتجسّد "النور" أو تجسّد "كلمة الله" هذا التجسّد هو قمّة الحضور الإلهى فى الطبيعة، وقمّة الاتحاد البشرى فى "اللاهوت" باتحادنا بالمسيح ، والتجسّد ليس انقساماً فى الذات الإلهى ، ليس خروجاً عن (انتبه لكلمة عن)

الذات الإلهي ، ليس شركاً أو استقلالاً ، وإنما التجسد هو أسمى معنى لحب الله للإنسان ، فالمسيح ينبثق من الآب متحداً بالطبيعة البشرية، متحداً بكل إنسان يودّ ويجتهد للاتحاد به ، والله يخاطبنا في الكتاب المقدس بلغتنا البشرية ، فهو – الخالق القدوس – يحاور إبراهيم أبا الآباء (تك١٨:٢٢)، ويحاور موسى حول فرعون (خر٢) ، الله يغضب ويحتد (تث٦:١٥)، ويطلب منا الكتاب ألا نحزن روح الله الساكن فينا (اف٤:٣٠ ، إش٦٣:١٠) ، وسبق وأن ندم الله على خلقة الإنسان قبل الطوفان (تك٦:٦)، وهو يسامح ويعفو (مز٧٧:٢١ ، خر١٢:١٠).

هذه أمور بشرية كيف تُلصق بالقدوس الأبدى ، الروح الأعظم ، خالق السموات والأرض ؟؟ إنها أمور بشرية ، لغة بشرية ، تعبير بشرى ، صور بشرية ، لكى تعطى لنا نوراً حول الذات الإلهى ، إنها تقول لنا إن فى الله حياة ، وفى الله نوراً ، وفى الله حباً ، مع الفارق بين "الأبدى" و "الزمنى" ، الله والإنسان .

أكبر الشعراء والعلماء المعاصرين يستعملون تعبيرات بسيطة، مثلاً : اختفت الشمس وراء السحاب ، أشرقت الشمس ، غربت الشمس ، وهم يعلمون تماماً أن الشمس لم تتحرك ولم تنتقل ، هذه حقيقة علمية ، ولكن التعبيراليومي شئ، والحقائق العلمية شئ آخر، هكذا فى الكتاب المقدس ، كلمنا الله بلغتنا ، كلمنا بأحاسيسنا ومفاهيمنا ، لنكتشف ذاته الإلهية وقداسته ، وفى آخر الزمان وعند ملء الزمان كلمنا بأعظم اللغات ، كلمنا بتجسّد نوره وكلمته الذى نقول عنه "ابن الله" المسيح ، صورة مجده وضياء لاهوته ..

نحن نؤمن بأن الله هو الحي القيوم ، وهذا الحى قدوس يتدفّق حياة ونوراً وحباً فى ذاته ، ويتدفّق إبداعاً وخلقاً فى سمائه

وملكوته ، فلكى نفهم ذلك لابد للكتاب المقدس من استخدام التعبيرات البسيطة المفهومة لنا .

اين الله ؟

الله خارج الزمن ، لا زمن له أو فيه أو عليه .

الله خارج المكان ، لا مكان له أو فيه أو عليه . لأن الله ليس له عمق أو حجم أو مقياس ، هذه أمور محدودة والله روح محض غير محدود، الله حقيقة شخصية وشخصيته حقيقية ، لا يحده مكان أو زمان ولكنه الخالق، هو ملء كل زمان وملء كل مكان ، حيث توجد مخلوقات. هو ملء هذا الوجود ، حيث يوجد خلقه وإبداعه، هو روح هذا لوجود ، إنه يملأ الوجود وعظمته لا حدود لها (حكمة١:٧) .

إذن ، أين يوجد الله ؟ لا معنى لهذا السؤال ، وينبغى أن نتساءل : أين لا يوجد الله ؟؟ مسكين عقلنا أمام سر الخالق ، مع أن عقلنا لا يسير ولا يفكر إلا بنور الخالق ، مسكينة حواسنا، هي محدودة فقيرة قاصرة ومع ذلك يمكن أن تلمس الله فى كل إبداع ، فى كل زهرة فى كل إشراقة فجر ، فى كل بكاء مولود ، فى كل أحداث الزمن ..

فالله هو الوجود .. هو المكان .. هو الحياة .. ونحن البشر إبداعه ، أجمل لوحاته ، صورته وحبه ، إن شئنا أن نحس بامتلائنا به ، باتحادنا به ، فلنمش على دربه ولنحيا بشرائعه ، لنرتفع ، لنسمو ، لننهض من "محدوديتنا إلى لا محدوديته" من فقرنا إلى غناه ، من ظلمتنا إلى نوره ، وذلك لن يتحقق إلا بالنقاء .. قال الإنجيل « طوبى لأنقياء القلوب لأنهم يعاينون الله » .

صلاة ختامية

أيها الإله الواحد ، الأحد .

القدوس ، الأبدي، اللامحدود

الحياة المتدفقة أبداً ... أبو كل حياة

النور المتوهّج أبداً ... المتجسّد بشراً سوياً

الحب الجارف أبداً ... روح الله الحنون

يا الله ... يا محب البشر ..

يا خالق كل إنسان

يا غافر الذنوب ..

يا معين من ليس له معين

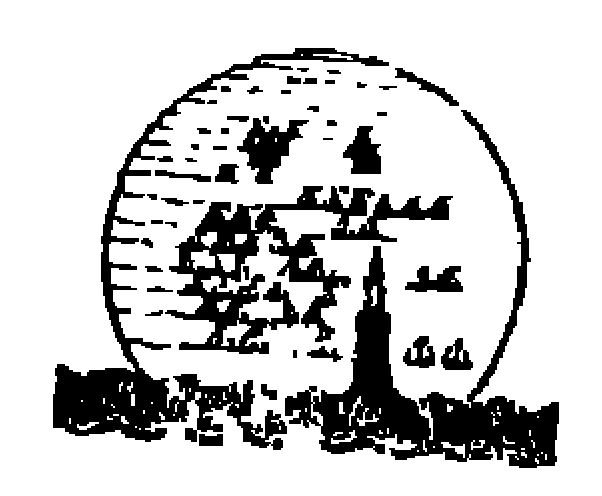
يا ملجأ الحائر والمُتعب والقلق

ارحم بنى البشر ...

وحّدهم فى حبك .

فى الثقة بك .

آمين





دكتور الأنبا يوحنا قلتة

نائب البطريرك للأقباط الكاثوليك

* أنهى دراساته اللاهوتية والفلسفية عام ١٩٦٠.
* نال درجة الماجستير فى الأدب العربى من جامعة القاهرة عام ١٩٧٢.
* حصل على درجة الدكتوراه فى الأدب العربى من جامعة القاهرة أيضا عام ١٩٨١.
* حاضر فى الأدب الغربى فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة وأكاديمية الفنون.

من مؤلفاته :

- أثر الثقافة الفرنسية فى أدب طه حسين
- الإنسان هو القضية .. الإنسان هو الحل
- قرية غرب النيل
- المسيح دعوة للحرية





دار الثقافة

١٠١٠٠٢٣٦